حين
حب
مرمر محمد
رواية قصيرة
رواية قصيرة
حين
حب
مرمر محمد
دار نشر رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم
ألم أخبرك يا عزيزي أنّ سئمتُ ؟
أجل ...
سئمتُ قسوتك وبرودك وجفاءك المُستمر ،سئمتُ
وجودك الباهت وردودك الجافة ،وصدّي كثيراً
عند بابك وأمام قلبك المتحجر .
إذاً لِمَ طرقتَ باب قلبي إن كنتَ لا تحنّ ،وقلبك
بالأشواق لأجلي لا يئن ؟ إذاً لِمَ بادرتَ ونزعتَ عن قلبي السلام
وهو به مُنعّم .. ؟!
لم يشك لي يوماً من رحيلٍ أو غيابٍ من حضور باهتٍ أو ود يمرّ بناظريّ ،ولم يضجر .
أتيتَ إليّ ونزعتَ منه سلامه ،لأجل أن ينعم بالحبِ تحت جناحك الذي لا يُرَفّ ،وأنت بطبعك
لا ترأفُ له أو لسواه ،أوَ حقًا تستحقُ أن يُطلق عليك لقبُ إنسان ... ؟!
ISBN:978-91-89273-38-2
978-91-89273-38-2
دار نشر رقمنة الكتاب العربي-
Stockholm

حـــين حُب

بقلـــم: مرمر محمد

الكتاب: حين حب

المؤلف: مرمر محمد

مصمم الغلاف: تبيان سيف اليزل

الطبعة الأولى 2020

ISBN: 978-91-81273-38-2

الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية: 2020-10-11-16-44

الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم

السويد، ڤاسترا جوتالند

هاتف: 0046790185518

البريد الإلكتروني: digitizethearabicbook@hotmail.com

جميع الحقوق محفوظة لدى دار رقمنة الكتاب العربي-ستوكهولم، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. والمؤلف هو المسؤول عن المحتوى.

من لا يشكر الناس لا يشكر الله

شكرا لله وشكرا لكم

الإهداء

إلى تلك الجميلة أمي، التي كانت وما زالت معي وبقلبي "مدينة الجدي"

إلى أمي الثانية والتي لم تبخل علي يومًا بعطفها وحنانها "زينب الجدي"

إلى أبي، سندي في الحياة "محمد عبد الجليل"

إلى عضدي ومن سأشد بهم أزري أخوتي وأخواتي

إلى معلمتي التي آمنت بي وقالت لي: ستكونين ذات يوم رائدة من رائدات المستقبل "معزة"

إلى أحبتي من رحم الكتابة، وأسرة "مبدعون"

وكُل أحبتي وأصدقائي، وكل من شجعني لإكمال هذه القصة

إليكم كُل ا

إليك أنت أيها القارئ الكريم، وإلى عينيك الجميلتين

"العمر يجعد الجسد، ولكن الاستسلام يجعد الروح"

إلى كل آدم وحواء

قلوبكم ليست للتجربة؛ فلا تسمحوا لأحد بالعبث بها، أو استغلالها، اختاروا من ينبض بصدق لأجلها.

"1"

"عندما تعثر على الحب ستعثر على ذاتك"

جلال الدين الرومي

لطالما تساءلت في صغري عن الحب وماهيته، يا ترى هل هو ذلك الشعور الذي يخامر قلوب الأمراء، كما في المسلسلاتِ الكرتونية ليس إلا! والذي لا يكتمل دونما المرور بمعوقات؛ كعمةٍ شريرة أو زوجة أب حاقدة، ورغم ذلك يجتمع الحبيبان ويزف العروسين إلى عشهما الجديد بعيدًا من لوث العالم وزيفه، وعن أطماع أولئك الجشعين من حولهم، وتكون تلكم هي النهاية السعيدة!

أم هو مجرد طُعْم يُخرِجُك من منطقتِك الآمنة، ويأخذك إلى عالم آخر حالك الظُلمة، ثم يتركك هناك وحيدًا من دون العودة إليك، أو حتى وضع علامات ترشدك إلى طريق العودة، وقد تتعفن من الوحدة.

بعدها كبرت أعوام وكبر عقلي وتفتح، تغيرت نظرتي إليه واختلفت مفاهيمه لدي، ربما ليست كثيرًا وإنما أدركتُ بأنه ذلك الشعور الذي يكتسح الدواخل، يلج القلوب عنوة وعنفوان، ويختلج الأحاسيس والمشاعر. هو أمان وارتواء، ود ودعاء، احتواء واكتفاء بمن تحب فتهيم به، امتزاج روحان معا فيلتحما؛ وتغدو روح واحدة وقلب واحد في جسدين، التئام جرحان لقلبين

طغى عليهما الزمان، وعصف بهما هامش الحنين، اتكاء أرواح أنهكها الشقاء على بعضها، وخارت من لجج العناء وعتمة الخذلان، تبعثر مشاعر، وسرمدية هوى.

الحُب ما هو إلا ذلك الهِيام المقدس الذي ينطبع على قلوب المحبين ويتوارى بها، أعمق من أن يرى بالعين فيبصر بالقلب. تلك الوخزات التي تخامر القلب فتتسابق وتتقافز؛ لتخلق هالة ملتهبة وشرارة من نار تتأجج وتحيط به، ترسم وتزين الحدود عليه وتضيء عتمة حياتك ويكأنها تقول:"قلبي به قاطن ولا أريد له أيَّة جار"

كأن تغوص في أعمق تفاصيل من تحب وتغرق بها، فتعقد وتربط ذاتك وعمرك به ويكون فؤادك أسير بين يديه، وأنت في لجج العطاء لفؤادِ دَّفاق منتشي من الحياةِ.

بصيص الضوء لعتمة حياتك وحنايا روحك، تشتاق له وإن كان معك، وقد يتوجس خافقك شيء من الشجن إن غاب عنك؛ فتسؤد لحظاتك وأيامك، تحن ويعتصر القلب شوقًا له، وإن هَّلا وحضر تشع ابتسامة فاقعة الصفار من على ثغرك، حضوره بداخلك يضاهي تلك الفرحة التي تغزو قلب طفل يتيم في فرحة العيد.

لا تكثر عليه بالعتاب وتخاف عليه من الغياب، تشعر أن ملاكك الذي يقف أمام قلبك هو مِلكك ومَلك مملكتك، وتظل تغار عليه ممن هم يهيلون بكما، وقد تغار عليه أيضا من ظله.

الحُب يتجسد برؤيةِ حبيبك مختلف عن كل من تراه؛ بفكره، عقله، قلبه، وروحه، تؤويك عيناه فلا تبصر غير قلبه معك، يكثر أشباه الأربعين دون أدنى شك؛ فتراه في كل الوجوه؛ لأنه قد احتل عصبك البصري، واستولى على دماغك أيضا، فتجده يشغل تفكيرك، ولن تبصر غيره.

تصغي له ولصوته، ومن فرط الحب قد يتهيأ لك ويكَّأنه لحن قيثارة تعزف على أوتار القلب أنغام، تجتاح المسامع لا تغيب عنك، وكأنها قد ختمت عليك لأعوام طوال.

الحُب عاصفة هوجاء، موجة عاتية، شراع قارب يتحدى عواصف المحيط، فنار بشاطئ يضيء الليالي الأدهمية الثقال، مرساة سفينة متين، ومجداف لمركبِ يقودك إلى الجنون فتنسى اسمك وعنوان بيتك وتنسى حتى من تكون.

فالحب كما قال الجلاح:

"مزجت روحك في روحي كما تمزج الخمرة بالماء الزّلال فإذا مسَّك شيء، مسَّني فإذا أنت أنا في كلِّ حال"

"2"

" قد تنمو الصداقة لتصبح حبا، ولكن الحب لا يتراجع ليصبح صداقة"

بيرون

شغف البدايات وما أدراك ما شغف البدايات!

لكل حدث، شيء، أو أيَّ محطة في حياتنا بداية، ولكل بداية نهاية، كأن يبتدئ حب بعد صداقة، من دون التنبؤ بالنهايةِ التي قد يؤول إليها، أو بالأحرى الولوج في معركة لها احتمالان: إما انتصارهما، أو خسارتهما معا، ومن يدري فقد ينتصر أحدهما دون الآخر!

فمن السهل جدًا أن تتحول الصداقة إلى حب، ثم يلتحما ولكن قد يصعب العكس تماما, عودة ذلك الحب إلى نقطة البداية؛ وخلق صداقة من جديد.

أو رُبما هو سهل ويسير لمن أراد ذلك، وصعب عصي لمن لم يرد، ولم يستطع من شدّة الوهن وفرط الحنين أن يتحكم بدَّقات خافقه، والجرح الذي ألمَّ به لم يندمل بعد.

لكن هذا لا ينفي أيضا أنه بعد أن يبتدئ هذا الالتحام، ولم يُكتب له بالاكتمال؛ فإننا حتما ودون أدنى شك سنخسر ذلك القلب الذي أحببناه وللأبد؛ لذا علينا التفكير ألف مرة قبل أن نلج في هذه المعركة التي لا ضمان فيها.

وأنا ولجتُ في تلك الملحمة دون التخطيط حتى، رُبما لأني لم أكن أبحث لها عن نهاية طالما أنت معي، فكلما أردته هو البدايات المتكررة بيننا، والتي ظننتُ وحتى آخر لحظة كانت تجمعنا بأننا سنجددها.

ولكن...

كيف بدأت صداقتنا، ومتى انتهت علاقتنا؟

"3"

"لقد مرَّ عام ثم عام ومثله وأيام عمري بالبعاد تروح، وقد قلَّ صبري واصطلاحي زائد وما أنا يا أهل المروءة نوح"

لقائله

_قبـــــل عامـــــين

الرابع عشر من تشرين الأول/أكتوبر مساء يوم الجمعة وفي هدأة الليل الأدهم, كانت عقارب الساعة تشير إلى تمام العاشرة قبل منتصف الليل، البرد القارص يشق طريقه نحونا مباشرةً؛ ليلامس أفئدتنا قبل أطرافنا، تخالطه رائحة البخور لتملأ الأرجاء، معزوفات روحانية في آخر شارع حيَّنا تُخالط هي الأخرى مسامعنا، الجميع يستمتع ويستلذ بهذه الأجواء الأخَّاذة؛ حيث تسيطر ملامح الشتاء القارص والمضني عليها تبدو وكأنها تحاول السطو بكل جبروتها عليها، وتبدو أنسامه وكأنها تتسلل منه عنوةً وعنفوان لتسرى في أجسادنا وتحط محط الذكريات, فذكريات الشتاءِ قاسيةً ليست كغيرها؛ لأنها تكرر ذاتها بالحنين ذاته وترغمنا على أن نرتشف كأسها الحلو مر في كُل عام.

كانت تلك الجمعة بداية لحدثٍ سحري ومختلف, لصداقةٍ ليست كغيرها من الصداقات في حياتي، صداقة أتت متخفية تحت رداء البراءة والورع، اقتحمت حياتي وشقلبتها رأسا على عقب، وفتحتُ يومها باب ليس بالجيد السيئ على حياتي، ولكن سريع ما أُغلقَ هذا الباب تاركًا خلفه قلب خاوٍ، جابه عواصف الحياة، تمزق تحت وطأة الألم مرارًا، بيد أنه قاوم بآخر رمق فيه؛ حتى لا يتحطم ويصير جذاذ، قلب قَوَّته تلكم التجربة التي خاضها، وتعلم منها درسًا كان بمثابة العظة والعبرة له، سُطِّرَ على صفحات خافقي، دونته محبرة الأوردة؛ وخُتِمَ بشريان متصل بنياط القلب؛ فكان من الصعب علي محوه.

لا يمكنني يا عزيزي نسيان تفاصيل أول محادثة جرت بيننا وكأنها كانت بالأمس، رغم مرور السنين عليها؛ استيقظت يومئذ من غفوةٍ لم تتجاوز من الساعةِ إلا ربعًا، فقد كان ذلك اليوم مرهقًا جدًا ومليء بالأعمال والأشغال المنزلية والتي انتهت يومها متأخرة.

حسنًا كعادتي بعد أن أصحو من نومي؛ أبدأ بإمساك بهاتفي بحجة أني أريد معرفة الوقت، وقتئذ وصلني إشعار لطلب صداقة جديدة في حسابي على"الفيسبوك" قبلته وأغلقت هاتفي زهاء ثلاث ساعات، ذهبت وقتها لأداء فريضة العشاء ومراجعة وردي من القرآن، بعدها تسللت إلى المطبخِ خلسة حتى لا أزعج أولئك النائمين في البيتِ؛ بدوت وكأني محترفة في التسلل مع أنها مرتي الثانية أو الثالثة ربما؛ حتى وصلت إلى وجهتي، فقد كان الجوع ليلتها ينخر بمعدتي نخرا ويحزني في دواخلي حزا، حقًّا صدق من قال أن:"الجوع كافر" عدت بعدها بكل نشاط محاولة أن أتصفح مواقع التواصل الاجتماعي؛ ريثما يزروني النعاس ويداعب مقلتيّ مجددًا.

ابتدرت جولتي الليلية المعتادة من الانستغرام مرورًا بالتليجرام ثم تويتر و واتساب إلى أن رسوت على حسابي في الفيسبوك للمرة الثانية، ووقعت عيناي على رسالة منك:

- مساء الخير.

- صباح الخير.

قصدتُ صباح الخير، لأن عقارب الساعة دقت وقتها لتعلن عن تمام الواحدة ما بعد منتصف الليل.

-كيف حالك!

-الحمد لله بخير، وأنتَ؟

-الحمد لله.

-هل تعرفني؟

-لا ولكن وما الضير في أن نتعارف الآن؟

رُبما لم تكن تعرفني من قبل كما قد قلت لي، وهذا بديهي جدًا لأننا لم نلتقِ حتى، إلا أني كنت أعرفك وجيدًا، أعرفك من قبل أن تبدأ حديثك معك، من قبل أن تقرر نسج خيط من الصداقة بيننا. أجل عرفتك من صديقتي (آمنة) التي كانت تحكي عنك وكثيرًا، وكنت دائمًا ما أطالبها بأن تُحافظ على صداقتكم، وأحيانا أطالبها بأن ترد على تلكم الرسائل؛ التي عادة ما تكون مُعلقة بينكما؛ فترد علي قائلة: "بأنها لا تهتم بالبرود كاست لأنه للكل ولا يهم إن وصلك رد منها أم لا" كنت دائما ما أخطف هاتفها من بين أصابعها وأبدأ بالرد عليكَ، ولأني كنت أعلم بأنها لا ولم تحدثك عني، فلم أتردد في أن أسألك ذلك السؤال!

أجل عرفتك من قبل، لكن لا بأس وكما قلت ما الضير في أن نتعارف الآن؟

_حواء، فتاة عشرينية تهوى القراءة والكتابة، وتعشق صعود الجبال.

-جميل جدًا! آدم فتى عشريني أيضا، يهوى الهدوء والسكينة يحب الليل ويكره ضوء النهار، ويعشق كرة القدم أكثر من أيَّة شيء.

_جميل أيضا! ولكن تصبح على خير آدم، الوقت متأخر أعذرني، و ائذن لي بالذهاب.

-تفضلي، وكان لي شرف معرفتك حواء.

ثم ماذا حدث بعدها؟

حقّا لقد كنا كمن التقيا صدفة عند محطة الحافلات وركبنا حافلة معا، ولحسن حظنا أو سوءه لا أدري لم نجد سوى مقعدين خُصصا لأجلنا، ثم ابتدأت رحلتنا.

ولم تنتهِ الصدفةَ هنا وحسب بل لعبتُ دورها كذلك بأن تكون وجهتنا إلى المحطة ذاتها, إن كانت هذه البداية، فمتى وصلنا إلى آخر محطة وبتلك السرعة، أقصد لِمَ مقعدكَ كان خالي ونحن لم نصل بعد؟

"4"

"عامان والذِّكرى تؤرق مضجعي، عامان يسألني الحنين وأكذب"

لقائله

_بعد عامـــين

-العفو يا أخت.

-لله، آدم وشكرًا على كل شيء.

-.....!

منذ آخر محادثة جرت بيننا ومنها تناسيتك أو نسيتك حقًّا لا أدري، استرجعني شريط من الماضي؛ ليسيطر على أيسر صدري، كما سيطر الشتاء على الطقس، ليفرض ذاته ويجتثني من واقعي إلى عالم متناقض، ومتضاد أكون فيه المذنبة والضحية، القاتل والمقتول، الجاني والمجني عليه.

استطعتُ زهاء عامين دفن كُل ما جرى معي في حفرة بلب عقلي وأقسم أني دفنتها جيدًا؛ ولكن هيهات، لأني كنت أهوى الكتابة، كان لدي دفتر صغير الحجم، ذهبي اللون؛ أحمله معي أينما ذهبت وحللت؛ لأكتب فيه تفاصيلي السعيدة فيه تفصيلة تفصيلة، ولم أك أدري بأن هذا الهوى، سيلاحقني، يزعزعني، ويرافقني بوخزات وألمٍ كلما قمت بقراءة ما كتبته في ما

مضى عنك، كل تلك الذكريات المتسلسلة كانت وما زالت بمثابة معضلة لي؛ والتي تُعرض الآن على هيئة فيلم رومانسي في ثنايا ذاكرتي، وأنا أعرف مسبقًا أن نهايته مؤلمة.

فيا ليتني أحرقته من يومها، بدلًا عن رميه بين المهملات، وليت التمني يجدي!

عرفت بعد ذلك أن الحب ممل كما يقولون عنه أيضًا، ممل وعند أول عقبة تراها أمامك؛ إلا وتجده قد ساقك لطرق نهايتها مغلقة؛ ثم يضعك أمام خيارين إما الفراق أو الفراق، حيث لا وجود لخيار ثالث بينهما ألا وهو المفاوضة أو التضحية والتنازل؛ لأجل أن يدوم، ومن ثم البحث عن طرق أخرى تجعل منه أبديًا.

كل هذا لا ينفي أيضا بأنه فاتن وجميل، جميل مع تؤام الروح المثالي، مع النصف الذي يجعلك تشرق بعد غروب دام لألف عام أو يزيد, ذلك التؤام الذي لا يكسر لك عود, ولو وجد مائة ألف طريق لكسرك؛ لأختار التضحية بروحه فداء لك.

جميل مع النصف الذي يرمم روحك بعد الضياع والغربة عن ذاتك، يشقي لأجل راحتك، يحبك كما أنت؛ فالحب ليس إلا كما قلت عنه آنفا وأكثر؛ فهنيئا لكل من وجد تؤامه، وهنيئا لمن وجد ذلك الشريك الذي يفخر بأنك له, وبك قد اكتملت حياته.

"5"

"عندما تُقلع عن إدمان شيء ما .. أول ما ستواجهه هو التفكير به في أوقات الفراغ؛ فإن قتلت الفراغ انتصرت"

أحمـــد خالـــد توفيـــق

أ تدريّ عزيزي آدم؟

اليوم مَر عامان ونيف مذ أن افترقنا، لكن لا تظن بأنِيّ أراقب عداد الوقت، وأحسب الأيام منذ أن رحلت، واختفيت عني فجأة دونما وداع، لا تعتقد أبدًا بأني أعد أيام افتقادي لك. لا؛ فبينما كنتُ أقلب في صندوق البريد خاصتيّ، وجدتُ دفترًا صغيرًا عند الأرشيف وعند أحد أركانه، له من العمر عامين بالتحديدِ، نفضت الغبار من عليه، وداهمنيّ الوجد والحنين إليك، لا أدري لِمَ فتحته ولكنيّ فتحته، بل وبدأت أقلب في صفحاته، وكل الأحاسيس تختلج إلى وجداني، تعث الفوضى العارمة بداخلي، وتضعني على شفا الذكريات.

إنها المرة الأولى التي أشعر فيها بدمعتيِ وهي تنساب من مقلتيّ؛ وأشعر بحرارتها ودفئها وهي تتدافع الواحدة تلو الأخرى على خدِّي، ربما هذا من إثر ذرات الغبار المكدسة عليه والتي تناثرت عليّ، أو ربما من إثر ما قرأته من قديم رسائلنا.

حسنًا...

لن تصدق ماذا وجدت أيضًا شريط الكاسيت الذي أحتوى على الأغنية التي كنتُ أحبها، ومعها الدفتر الذي يحوي كلماتها، اذكر أنك قد بحثتَ عن الكلمات، والتي يصعب إيجاده فقط لأجلي.

وللمرة الأولى كذلك أصغي إليها وإلى كلماتها وما بينهما مشاعر مختلطة، ثَّمة لهفة وشوقٌ يشدني إليك، وثمة ما يشدنيِّ أكثر لأنسى هذه اللحظة؛ التي ضعفتُ وتذكرتكَ بها، أتدري ما هي؟

ألا وهي كلماتُ الأغنية ذاتها التي تكررتْ فيها جملتيَّ " لا تستسلم، لم تحبطني"

"6"

"إني التجأت إلى فؤادك ضمني ورجحت بكفة الشوق إليك .. فما لي أراك عنك تصدني ألست مشتاقا إليّ كما أحن واشتاق إليك!"

مـــــرمر محمد

-بالرغم من أني لا أعرفك حق المعرفة إلا أني اشتقتُ إليكِ، لا أدري ما هذا الشعور الذي يخامر قلبي! ماذا عنكِ، هل تشعرين بمثل ما أشعر؟

-عفوا؟!

-آسف ولكنها المرة الأولى التي يختلج فيها شعور كهذا قلبي!

ماذا؟!

هل حقا من الممكن أن يأخذك الحنين بملء إرادتكَ إلى أحدٍهم وأنت لا تعرف شيء عنه شكله، اسمه كاملًا، عنوان بيته، لقبه، عنوان عمله؟

هل من الممكن حقًّا أن يتسلل هذا الشعور من قلبك، ليتسربل ناحية خافقي و ينسرب، ودونما أن أدري؟ أخبرني ما الذي تعرفه عن الشوقِ، ولهفته؟ وما الذي خامر قلبك في ذلك اليوم عندما راسلتني قائلًا لي تلك الكلمات؟ لا بل أيَّ رجلٌ أنت ذلك الذي يحن ويتوق إلى امرأة من دون أن يراها، ولا يعرف كيف هي ملامحها؟

أيَّ صورة تلك التي رسمتها لي في مخيلتك يا آدم؟

آسفة، ولكني لم أكن أحمل بين طيات أضلعي ولا أي ثمة شوق تجاهك، ولم يبادر هذا الشعور إلى مخيلتي، ربما كنت تود لو أبادلك الشعور ذاته، ولكني يا عزيزي لم أكن أجيد الكذب؛ حتى أجعلك ترتوي سعادة وأشعبكَ وهمًا جميلًا وأرد قائلة لك: "وأنا كذلك" ولكن كل ما ساورني في ذلك الحين هو الخوف منك لا غير، فاختصرت ردي لك ب:

-آه حسنا، تشتاق لك الجنة، وكل ما فيها.

أعتذر لك حقًّا إن كان ردي يخلو من المشاعر الجياشة والتي لا أقول عنها سوى أنها مزيفة ولا تتسم بالصدق، ولكن أليس ردي مناسب ولائق جدًا، أوليس شوق الجنة لك بجميل؟

لا أدري أي نظرية تلك التي اختلقها عقلك وطبقتها، أو ما هي هذه الإستراتجية التي تتبعها! حيث أنه في الوقت الذي كان لابد أن تشتاق إليّ فيه؛ لم يتقُ قلبك لأيسري، فكيف كان من الممكن أن أصدق عذب كلماتكَ، وحديثك الحلو ذاك.

رغم ذلك لا أخفيك بأني قد اشتقت إليكَ وكثيرًا، اشتقت لاندفاعك الهادئ، طفولتك البريئة، ثنايا روحك، وأحاديثنا ذات الطابع اللطيف، المجردة من كُل أساليب الخبث، تلكم البدايات التي جمعتنا تحت عرش جمالها.

أحن إليكَ الآن من بين الصفحات، وتلكم القصص التي تخلو من صورك وصوتك، سواء كانت من الماضي أو من لحظتي هذه؛ فهي تندفع أمامي الآن بقوةٍ على هيئة فيض مضطرب من الذكريات.

أحن وأتوق إليك كثيرًا ولكن يوم أن ابتدرت بشوقك الكاذب لي؛ لم اشتق إليك.

بعدها أردفت ردك:

-اللهم جمعا.

-كيف حالك اليوم؟

-الحمد لله في نعمة، وأنت؟

-الحمد لله، إلا أني مريض.

-سلامتك!

-سلمتِ من كُل شر أيتها الطيبة، حدثيني عن حياتكِ؟

أجبتك وقتها ضاحكة:

-كيف عرفت أني طيبة؟ ثم أخبرني أنت ماذا تريد أن تعرف؟ فأنا لست بمارِدٍ حتى أعرف ما تود أن تعرفه عني؛ حتى المارد يخبره مالك المصباح بما يريده.

-عرفتُ وفقط، أيَّ شيء مثلًا ماذا تحبين، وأين تدرسين؟

_أخبرتك سابقًا أني أحب الجبال والصعود عليها، وأهوى جمع الحجارة الصغيرة وتمييزها، أحب كذلك الكتابة، وأدرس في معهد للفنون.

-رائع! أريد حجر مميز لأجلي، هلٍ أحصل عليه يا ترى؟ أنا أدرس في كلية الهندسة، أحب كرة القدم؛ كنت وما زلتُ هداف فريقي سواء في الحي أو في الجامعة، ولكن كيف لفتاةٍ أن تصعد الجبل.

أجبتك بكل خيلاء وضاحكة:

-حسنًا سأفعل، سأعطيك حجر أبيض وسأدهنه لك بلونين الأحمر والأسود حتى تستطيع إيجاده بسهولة في حالة إن ضاع منك، ولكن من أيَّ عالم أنت؟ فلطالما صعدت أحد الجبال في بلدتي أكثر من مرة وفي كل مرة وانزل منه أصرخ وأخرج كل طاقتي المكدسة والسلبية، يمكنكَ يا رفيقي مناداتي بفتاة المهمات الصعبة.

-سأنتظركِ إذًا، واو يبدو أنك حقا جادة في ذلك، حسنا سأفعل! أين تعيشين يا فتاة المهمات الصعبة؟

-في الخرطوم، وأنت؟

-أنا أعيش في أم درمان، وهي مسقط رأسي.

-تشرفت بمعرفتك، والان ائذن لي بالذهاب للصلاةِ.

-تفضلي، وأنا أيضا ذاهب.

كل شيْ يبدو عادي أليس كذلك وعاديٌ جدًا، بدايات عادية، تتسم بطابع اللطف؛ تلكم البدايات الساحرة والجذّابة، والتي أسميها جنون البدايات لا غير، فقد كانت جذّابةً جدًا، وساحرة بسحرٍ فاق الحدود؛ كنت يا آدم لبقًا جدًا يومها، وهادئ، وابتسامتك ونبرات صوتك ما هي إلا دليل لشخص يُخفي وراءه قلب طيب، وأغرقتني بفيض حنانك، كنت الأول الذي زعزع سلامي وأشاع الحرب في قلبي النائم عن الهوى، كنت الأول الذي فرض بصداقته عليَّ، استعمر خافقي، احتل ثنايا ذاكرتي، سرقني من وقتي لحظة؛ فغدت عمرًا في كنفه.

"7"

"إنه طريقك وحدك، قد يرافقك فيه أحدهم لفترة من الوقت، لكن لن يكمله أحد غيرك"

-جـــــــلال الديـــــــــن الرومي

أتدري يا عزيزي؟ بأنك كنت مرشدي الروحي ودليلي في متاهات الحياة، كنت معبري الآمن؛ كلما ضاقت عليّ وجدتك معيّ وبقلبيّ. كلما قلبت صفحة من هذا الدفترِ، تبعته دمعة دافئة تنهال على خديّ، ربما أكون قد شعرتُ بأنيّ فقدتُ شيئًا ثمينًا، شخصٌ عزيزًا عليّ؛ فقد كنتْ أطهر وأجمل من أن أكرهك يومًا، كيف لا وقد توغلت في دهاليزي الداخلية، ونقشت باسمك هناك، ولكن هذا ما كنت تريده أنت، أن أكره حتى ولو مرور طيفك أمامي.

رفيقي أو كما كنتُ أحب أن أناديك (رفيقُ الجنةِ) أنا أبْصُرك بعين قلبي، فلا تتصنع اللُّوم والخبث أمامي؛ كي تجعلنيّ أكرهك, فأنا بالكاد عرفتُ درب ما عرفتُه من قبل وما سلكتُه إلا معكَ، فكيف أكره من علمنيّ الحب وأذاقني حلواه، وكيف أكره من أنار ليّ حياتيّ، وأرشدني إلى طرقِ كنتُ أجهل كيف سأمضي فيها يومًا وحدي؟

ففي يوم كان اليأس يملؤني، ولا يريد مغادرتي، تلوت عليّ بضع آيات وطمأنتني بكلماتً ثم قلت لي:

-حواء، تذكري يا صديقتي أن الطرق التي أمامنا قد تكون محفوفة بالمخاطر، وربما قد نجدها مغلقة، ولكن من توكل على الله فهو حسبه، وسنتجاوزها بإذن الله، لا تدعي سبيل ليصل إليك مجددًا، تمسكي واعتصمي بحبل الله.

-أنت محق يا رفيقي، شكرا لك.

-سأكون معك إن ضاقت بك الأيام أو فرجت، وعندما تتزوجين ربما قد تنسيني ولكن ستظلين صديقتي الصدوقة، أختي ورفيقتي الصغيرة الجميلة.

-رفيقي أو ما رأيك بأن أناديك رفيق الجنة، لا أعلم ما أقوله لك، ولكن شكرا لك مرة أخرى.

ـــإنها المرة الأولى التي يناديني فيها أحدهم كهذا "رفيق الجنة" فشكرا لكِ، وشكرًا لأنك سمحتِ لي بالولوج إلى حياتك كصديقٍ وأعدكِ أن أكون أفضل صديق وأخ.

ـــلا تشكرني أولم يكن آدم وحواء في الجنة معا، وربما سنكون كذلك يا أخي العزيز.

آخ يا رأسي، كثيرة هي تلكم الذكريات المكدسة في ثنايا الذاكرة التي أحملها في داخلي لكَ، والتي لم أقوَ يومًا على نسيانها؛ لذا ربما ستظل الأمثل إلى قلبي، وربما لا فالقدر يخبئ لنا في طياته دائما مفآجات وسيهديني الأجدر منكَ بقلبي، وكما قال الشيخ الشعراوي:"**إذا أخذ الله**

منك ما لم تتوقع ضياعه، فسوف يعطيك ما لم تتوقع أن تملكه" وأعلم جيدًا بأن الله لم ولن يخذل قلبي، وسيهبه من يستحقه، حتى وإن كنت قد خلفت فراغ كبيرًا من بعدكَ، وأعلم كذلك بأنك لم تكن خيرًا لي.

"8"

"كل الأشياء البسيطة هي أكثر الأشياء تميزًا ولكن ليست كل عين ترى"–جلال الدين الرومي

لا زلت اذكر خميس التاسع والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر، عند الساعة الثانية والنصف ودقيقة، وقتها ناديتني باسمي بطريقةٍ مختلفة، كان يحمل نكهةً أخرى، جمالٌ آخر، ربما لأنك قد نسبته إليكَ (حوائي) وربما يكون هناك سر آخر قد أخفي علي، ولكن حتما إنها ليست المرة الأولى التي أحبُ فيها اسمي أو أشعر بجماله، ولكنها بالفعل المرة الأولى التي شعرت فيها بجمال أحرفه، فلتدريّ إذًا بأنك كنت أول من ذا جذبه اسمي بالرغم من عدم غرابته وبحث عن معناه دون أن أشعر، ثم حفظه وألقاه علي، حقًا أثرت دهشتيّ حينها.

كل هذا والجميع يسألونني لِمَ أحببتك وما زلتُ أحبك بهذا القدر؟!

ولكنهم أيضًا لا يعلمون أنيّ بداخليّ أبغضك وأمقتك بشدّةٍ، الآن أنا أمغض حتى أن الفظ اسمك، وما بين يوم وليلة تغيرت نظرتي إليك، تغير قلبيّ حقًا؛ فصار يدرك جيدًا ما بين الحبُ والعبث به؛ فتذكرت مقولة **"أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني"** ولكن هنا العكس تماما؛ فلما اشتدَّ قلبي حبًا، هجرتني.

بعدما ما أدمنت وجودكَ بقربي؛ صار صعبٌ عليّ فكرة أن أمضي ليلة دونما وجودك، اعتقدت أن لا صباح قد يحلُ عليّ ما لم نلتقِ، وستظل كل أيامي عبارة عن ليالي ساكنة وخاوية. ولكن سريعا ما أقنعتُ نفسيِ بأنه لا خير في حب يقبع خلف الشاشات، وبدا الكُل لي حينها مزيف، كل شيء ضبابي ولا يتسم بأي وضوح, حتى حضورهم في داخلي معتم وباهت؛ فالحضور الباهت أشبه بالغياب، أشبه بالحياة بلا حياة، جسد بلا روح، يجعلنيِ ألعن البداياتْ ألف مرة، يجعلنيِ أشتهي الغياب كل مرة، هكذا كنتُ أردد بسببك وقد كرهت البدايات، جعلتُ حديثيِ مع الجميع فقط نهايات.

"9"

" هكذا هي الحياة فعندما تخبر أحدهم الحقيقة؛ فإنه يكرهك وكلما تحدثت عن الحب ازداد كراهية لك" –قواعد العشق الأربعون

عزيزي آدم ...

دعني أبوء لك بسر لطالما حاولت، قمعه أو نسيانه بيد أني فشلت؛ فقد ظل قابعا بثنايا ذاكرتي، وكأنه قد قيل بالأمس؛ ألا وهو تلك الكلمات العميقة التي قلتها لي في اليوم الثلاثين من الشهر ذاته تشرين الثاني/نوفمبر، عند الساعة الرابعة إلا ثلث الساعة، بالرغم من أنك قد قلتها ليّ على عجلِ ولا أعلم إن كنتَ تعنيها أم لا! إلا أنها اخترقتْ صيوان أذنيّ؛ واستقرتْ نسج أحرفها بداخليِ، وكأنها نُقِشت في قلبيّ بسبيكة من الذهب، ألا وهي:

-لا تبالي بمن حولك من أناسٍ تعرفينهم وقد أضمروا لك السوء يومًا، تجاهليهم؛ فأنتِ لم تك تعرفينهم من قبل؛ لذا لن يُنقصوا من مكانتك شيئًا.

أتذكرُ حينها كيف ولج عقدُ كلماتْك إلى قلبيّ بسرعة تضاهي سرعة البرق، وكيف قَبعَ فيه، واليوم أنا أقلبُ دفتريّ هذا، وأمرٌ بالوصية ذاتها؛ تنهال دمعتيّ فما بين سخرية وشماتة، وما بين حزن وانكسار تشتتُ كثيرًا؛ لأنكَ أنت من كسر هذي الوصية، وفقدانكَ بالفعلِ كان منقصةُ ليّ؛ فبَعدَ بُعِدَك لَم أعرف الزيادة قط، لَم أرَ من أياميّ أيُّ نيف.

ليتك تدري بأنك إن عدت اليوم إليّ من جديد بأنيّ لن أندم على عودتك، فأنت كنت بمثابةِ الروح لقلبيّ والآمان لهُ، ولكنيّ لن أقبل بكَ مجددًا؛ فلست بذلك الضعف والغباء؛ لأفتح الباب لتجربة خاسرة بالتكرارِ، ولن أنسى يومًا بأن"**المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين**"

في اليوم الثانيّ وعند الأول من كانون الأول /ديسمبر، يومها كانت الساعة تشير إلى الثالثة والنص مساء يوم الجمعة، كنا قد بدأنا بالتحدث عن مواضيع عدة ومتفرقة إلى أن وصلنا إلى أمَّرهم ألا وهو الفراق والموت، وقتها زجرتنيّ بقولِكَ ليّ:

-لا بقاء ليّ من دونكِ، لن يفرقنا إلا الموت ولا حياة لي من بعدكِ؛ فأنا لن أحتمل الغياب ربمَّا لأني ابتليتُ بقلبٍ حنين، لا يقوي على الفراق، ولن يحتمله أيضا.

لِمَ قلت لي ذلك حينها لا أدري؟! ولكن ما أسهل الكلماتْ عليكَ، لاسيما أنكَ اليوم باقي تسرح وتمرح على الأرضِ, وأنا ربما متُ ألف مرة وأضحيتُ جسدًا بلا روح.

أجبتكَ وقتها ضاحكةً:

-إننا فقط نتحدث عنه، ونلقى قصائد فيه فقط، هي ليستْ حقيقة يا رفيق فلترح قلبك قليلًا.

استشطت غضبا وأجبتني:

-أخبرتكِ ألا تتحدثي عن الفراق أرجوكِ، أنت تؤذينني بذلكَ يا صديقتي، لن يفرقنا إلا القدر؛ فإذا فرقنا سنلتقي في الجنةِ من جديدِ بإذن الله.

-حسنا، أنا آسفة لن أتحدث ولكنها يا رفيقي سنة الحياة والحقيقة الوحيدة.

حقًّا لم يفرقنا إلا القدر؛ بالرغم أنيّ في ذلك اليوم لم أكُ أعبأ بهذه الكلماتْ التي نطقتُ بها، ولم أحملها في طي قلبي، بيد أني أعضُ نواجذيّ ندمًا عليها كلما تذكرتها، فأغفر ليّ، وإني لو كنتُ أدري بأنيّ أمضتك بها لما نطقتُ بها، بالرغم من أني قلتها على مضض، إلا أنيّ سعيدةٌ بها في أحايين كثيرة, وأظنها دواء لي في حالة تذكرتك واشمأززت منك، وأحيانا في غضبي منكَ بعض الأوقات.

"10"

"تعلموا الصدق قبل العشق لأن العبث بالمشاعر أكبر جريمة"

كم هي سخيفة هذي الحياة، ومتقلبة؛ فهي تتقلب ما بين سعادة وحزن، هَّم وفرح، ضيق وفرج، لحظات بكاء وضحك، وتكون ممتزجة في ما بينهم، ولولا هذي المشاعر المتقلبة لما شعرنا بأننا نحيا، كما أن الحياة لا تهبنا ما نشاء وقتما نشاء و أيما نشاءه.

أو تدري أني أحيانا أحنُ، وأتوق إلى أحاديثنا الحبلى بالمزاحِ والضحك؟

فمن منا لا يتوق للضحك ولحظاته؟!

ومن منَّا لا يحب أن يتذكر لحظات السعادة؛ فليت كل الأيام سعادة وفرح، وليت الحزن لا يزورنا فيهلك ما تبقى منَّا! ولكنَّه ابتلاء جميل أحيانا؛ لأنها يجعلنا هشين جدًا وبحاجة إلى من يربت على قلوبنا، وأننا نحتاج إلى ملجأ يكتنفنا، ويحتوينا، فيعيدنا إلى رشدنا، ويعيدنا إلى حقيقة واحدة أننا للهِ إليه راجعون.

في ليلة الثاني والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر وعند الساعة العاشرة وثلث مساءً كنا نتمازح ونتحدث عن سفرك خارج البلاد، ولِمَ لم تحضر لنا الهدايا! فأجبتني بأنكَ لو كنت قد التقيت بنا مبكرًا لما تأخرت في إحضارها لنا.

يا إلهي كم كنت تبرع في ارتداء زي المكر وبجدارة، و لربما هذه هي فطرتك التي ولدت بها. ومن يدري ربما لا؛ لأنك يا عزيزي صرخت بوجهي عند آخر لقاء جمعنا معا قبل أيام، وقتها زالت كل معالم اللطف تلك منك، وانقشع جل ما كنت تخفيه خلف ذلك الوجه البرئ، صرخت في وجهي من دون أن أنبس ببنت شفه، ويكأنك بت تكره أن ترى وجهي أمامك! بالرغم من أنك أخبرتني من قبل أنك تحترم الأنثى وتقدرها خاصةً ولديك كذلك أخوات.

حسنا...

يومها دلفنا في حديثنا عن فتاة باسم سورة من سور القرآن (الإسراء) فقفزت في بالي فكرة أن أمازحك بها وأراقب ردة فعلك الغاضبة، فصرت أمازحكَ بها؛ لأنك قد أخبرتني سابقا أنك تحب هذه السورة جدًا وسَهُل عليكَ حفظها، ولكن بدهائِكَ استطعت تجنب تلك الممازحات وقلبتها لصالحكَ، فتهتُ معك بيد أني انسحبتُ سريعًا حتى لا يفلت لسانِيّ؛ وأبدا بمحاربتِكَ فلم أكن أحب هذا النوع من الأساليبِ وألوذ بالفرار منه دائما وأبدًا.

-من هي إسراء؟

-أخبرتك يا حوائي، أن لا وجود لإسراء، فقط أحببت تلك السورة وكان سهل علي حفظها.

-رفيقي، أنا لا استجوبك، أردت فقط معرفة من هي؟

-هي ليست أحد، إنما هي سورة في المصحف الشريف.

كنت في دهاليزي الداخلية أضحك وبشدَّة، وأنت لا تريد الاعتراف ثم أجبتك يومها:

-أعرف ولكن لِمَ لم تكن سورة يوسف أو إبراهيم؟ لِم لا تكون الكهف أو البقرة، ناهيك عن أني لم أسألك عن سورة مريم!

-لأني أحب الإسراء.

-انظر لقد اعترفت أنك تحبها، فمثلا أنا أحب سورة الفرقان.

-وأنت هي إسرائي.

-عفوا آدم، ولكن لا تخلط وتمزج الأمور ببعضها.

ابتسمت ثم استرسلت قائلا لي:

-ما بك، ألا يعجبك الأمر يا إسراء.

-آدم! يعجبني اسمي أكثر، كما تعجبك كرة القدم وتصبح على خير.

- وأنا أحبكِ أكثر من إسراء وكرة القدم تصبحي على خير.

-وأنا لا، إلى اللقاء.

ربما كنت تتمنى لو أني أحبكَ أيضا يا آدم، وغالبا ما كنت تفلح بجعلي أهرب منكَ، من دون أن أتفوه بأي حرف، ولا تدع مجالًا لأعيننا بالالتقاء، وتحول خفية وسرعة بناظريكَ عني، ربما كلصٍ هارب من العدالة، أو كقطةٍ شاردة في يوم ممطر وتبحث عن مأوى لها.

في صباح اليوم التالي (الثالث والعشرون) عند الساعة العاشرة إلا قليل من الدقائقِ، بدأتَ تناديني باسمها.

-صباح الخير إسرائي.

-آدم! قلت لك اسمي هو حواء.

لم أدرِ المغزى من هذا! هل كنتَ تتهرب ولا تدري كيف تداري اسما لإحدى حبيباتك السابقات ذكرتهُ في حين غفلة؟

ولم تدرك بأنِيّ ذات ملاحظةٍ قوية، أما أنك كنتَ صادقًا في ما تقوله؟!

وأنت لم تعرف قبلي فتيات، ولكن عفوًا فانا أيضًا أحُب اسمي؛ لم أعُركَ حينها أي اهتمام، حقيقة قلبِيّ كان لا يحدثنِيّ بخير تجاهك وقتها، وحتى اليوم وإن كنا افترقنا؛ فقط لأنكَ تركتني أصول حول أناي الهزيلة كيَّ أفهم متى وكيف افترقنا، وانتهت أخوتنا، صداقتنا أو حبنا الكاذب؟

وكيف حدث هذا الانفصال؟

لقد تركتني حقًّا في حيرة والكثير من الحواراتِ في عقلي وقلبِيّ؛ زجتْ بِيّ في دوامة من الأسئلة لم أجد، أو أبحث لها عن إجابات، ليس جُبنًا مني؛ ولكن كنتُ أعتقد بأنه لا جدوى من ذلك، وخصوصا وأنها حريتك الشخصية، وليس لدي الحق بأن أُقحم نفسي عنوة فيها.

كثيرًا هي تلكم الرسائل العابرة التي تمر علي والتي كنت اعتبرها بمثابة هدية ليومي الطويل الشديد الدكنة، والمليء فقط بالكآبة؛ فما إن تمر عليَّ رسالة عابرة حتى يتسلل الضوء إليَّ وتنفرج شفتيَّ رغما عني، فجحافل الرسائل تلك اعتبرها واحدة من الأسباب التي جعلتني

استمر في طريقي لإيجاد النور الذي سيقودني إلى روحي مجددًا، فبعد أول يوم من فراقنا وجدتُ هذه الرسالة "**لا تهدر المزيد من عمرك وتبكي خلف قافلة تدرك تماما أنها تعمدت الرحيل من دونك**" ولطالما كنتُ متصالحة مع ذاتي وأخبرها أن من خرج من حياتي فهو حُر؛ وما من داعي لي بأن أفسح المجال لروحي بالضياع وسط معمعة سرمدية؛ خصوصًا وأنك كنت دائمًا ما تراوغ أثناء حديثنا؛ وكنت تجيدها بإتقان (المراوغة) ربما لم أخبرك أنني لا أحبُ فن المراوغة ولكنيّ أبُدع في ربط الأمور مع بعضها.

حسنًا ...

لن أنكر أنني ما زلتُ حائرة فيك، فكيف كنت تبدُع في ارتداء زِيَّكَ الملائكي مع كُل فتاةٍ تقابلها، وليس أي فتاة وحسب بل أي شخص أعرفه ويعرفك، وكيف لك أن تخلعه بعد أربعة أشهر ربَّما أو أكثر، ثم تعود لارتدائِه مجددًا؟

أو ربما تتخذ لنفسك مائة قناع، ومائة رداء؛ لكي يتلاءم مع كل شخصية تقابلها من دون بذل أي عناء.

حقًّا كم أشفق عليكَ وأنت بهذا الزيّ تتخذ وضعية الضحية، وأنت في دهاليزكَ مُجرد ثعلبٌ مكار وذئبٌ غدار تجيد العواء بمهارةٍ!

"11"

"لا حب إلا ما انكسرت به فلا تذهب سيرجعك الحنين لتحتضنه"

"لا تتنازل أبدًا عن عزة نفسك سيؤلمك الفراق قليلًا؛ وبعد ذلك ستكون فخورًا جدًا باحتفاظك بكرامتك وستبتسم"

في جمعة التاسع عشر من كانون الثاني/ يناير، لم نكُ على وفاق؛ فقد شجر بيننا شجارٌ صغير؛ أدى إلى انفصالنا مدة لا تتجاوز من الأسبوعِ إلا يومين، لَم تكُ تريد أن تحادثني، وأنا لم أكُلف ذاتي عناء الاعتذار منكَ، كنتُ وما زلتُ لا أحب لحظات الضعف والاستسلام، يمكنك القول بأني كنت عنيدة حقًّا، إلا إذا كنتُ أنا المخطئة وقتها، وأعلم أني يومها لم أكن المخطئة؛ فقط لأنك قد عرضت علي فكرة أن نلتقي، فحاولت التملص من حديثك هذا، وأخبرتك بأني لا أحبذ فكرتكَ، ولكن عندما زدت إصرارًا بقرارك؛ زدتُ عنادًا في قراري، ولأنك لا ولا تقبل الهزيمة، اختفيت دونما مقدمات كيف لا وقد هُزِم غرورك وكبريائك أمام فتاة، كيف لا وقد ظننت بأن عرشك الذي لا يخر لأحد؛ قد انحنى واهتز أمام أنثى؛ ربما كنت تعتقد بهذه الطريقة الغبية بأني سأشتاق إليك وأرد عليك بالقبول.

يا لها من خطة ذكية!

أذكر أني في صبيحة ذلك اليوم قد تنازلت عن القليل من كبريائي، وتخليت بعض الشيء عن غروري، فقلت لكَ:

-عزيزي آدم، عُد إليّ، صدقني لا ملجأ منك إلا إليكَ، ولكني حتما لن أوافق على قرارِ لقاءنا.

حسنا..

بما أننا مسلمون، والجمعةَ عيدنا ويوم للتسامح والأخوة، فقررت حينها أن أبادر بالسلامِ عليك وعلى قلبك، لم تُخِبْ ظني حينئذ ورددتَهُ عليّ بالحبِ والوئامِ، وأخبرتني بأنك ستخطبُ اليوم في مسجدِكم.

لا أدري إن كنت أهلًا لذلك الآن أم لا، ولكنكَ وقتها كنت تستحق ذلك بجدارةٍ؛ فقد كنتُ أحب تُقاك وقربكَ وخوفك من اللّه، ولكنه أضحى مجرد رداء مزيف أخفى حقيقتك آنذاك.

أحيانا كثيرة أؤمن بأن هنالك شخص صالح يقبع في دهاليزك، روحٌ طاهرة تقبع في ثناياك، هناك قلب يحب الله كثيرا ويخشاه؛ آمنت بذلك حقًّا مذ أن قلت في ليلة الثلاثون من كانون الأول/ديسمبر من بعد صلاة العشاء مباشرةً:

-أتدرين يا حواء، أنا لا أخاف الموت؛ ولكني أخاف وحشة القبر وظلمته.

-آدم، ما بك اليوم! أطال الله عمرك يا رفيقي.

-لا تدعي لي بطول العمر رفيقتي، أحيانا أتمنى لو أموت صغير، حتى لا أزيد من ذنوبي، وأملأ دفتري بالسيئات، أريد أن أكون طاهرًا من الذنوب.

-توقف أرجوك، أن تبكيني بحديثك هذا.

-لا تبكي أرجوك،لم أقصد واللّه. أتدرين يا حواء، دائما ما كنت أنتظر حلول الليل وسكونه، وخاصة تلكم الليالي الظلماء، حيث لا وجود لضوء القمر فيها؛ لأتمشى وحدي؛ حتى أعتاد على وحشة القبر حينما أموت وحيدا.

-آدم! فليرزقنا الله حسن الخاتمة يا رفيقي.

رفقا بقلبي يا رفيق، فذكريات كهذه تُبكيني رغم اعتلاء الغبار عليه في ذاكراتك؛ وربما تكون قد محوت حديثك هذا، ولكني لا ما زلتُ كل عام أكنس ذلك الغبار واقرأ هذه الرسائل فيقشعر بدني ويقف شعري جسدي خوفًا ووجل إلى الله.

عزيزي آدم ربما شياطين الأنس من حولك تحيك لك الحياة بأسلوب آخر، وترسمه لك بريشة مغرية على هيئةِ لوحة فنية مشرقة، ومزدانة الجمال، تراه وكأنه قطعة نقدية لها وجهان وجانبان مختلفان؛ فتميل بكل الزهو نحو الجانب المظلم معتقدا أنه الطريق إلى النور.

أتذكر أيضا أنكَ قد أخبرتني بأنكَ ستقدم خُطبة ولكن ليس في هذا الشهر تحديدًا، كان شهرها هو آذار/مارس.

– لماذا ستقدمها اليوم؟ أقصد ما الذي طرأ حتى قمت بتعجيلها؟ ولِمَ لم تخبرني باكرًا؟

–لم نجد أحد يقدمها اليوم، فوقعت القرعة عليّ.

– اممم حسنا، بالتوفيق.

أعلم بأني لو كنت علمت بوقتها باكرًا ما كنت سأغير شيء، دعوت لك الله لأجل أن يرزقك بالثبات وقتئذ، طلبت مني العفو وذهبت لتُقدمها.

يومها لم أكن أعلم ما السر من إخباركَ لي بذلك! بيد أنك حقًّا أثرت إعجابي، أعترف بأني وقعت أسيرة هذا الكمين. ولكن عزيزي آدم هل لأنكَ كنت تود أن تشاطرني بأعمالِك وأكون جزءًا منها، أم لتبذر الثقة بين قلبينا؟

ولكن تأكد تماما بأنك لو كنت تريد إثارة إعجابي بك فقد نجحت في ذلك؛ فهنيئا لك.

عندما دقَّت عقارب الساعة مشيرة إلى الثانيةِ والنصف ما بعد الظهر، عُدت والبسمة تملأ ثغرك؛ ابتسامة الحسن والنضار، عدت وقد كنت مبتهجا ومسرور للغاية، ربما كطفلٍ عاد

لأمه؛ بعد غيابه عنها في يومه الأول والطويل؛ الذي قضاءه في روضة الأطفال، ولقد كنت فرحًا بتلك اللحظة؛ لأنك اجتزت هذا الاختبار بخير.

بعدها عُدنا وكأن شيئًا لم يكن، اختفت الشحنات التي كانت بيننا، قصصت عليكَ ماذا فعلتُ في غيابكَ، ثم سألتني ماذا حفظتُ وقتها من القرآن.

حسنًا فقد كنا نحفظ معا، ولكن وقتها لم استطع أن أحفظ شيئا لأني كنتُ مريضة وأفتقدك أيضا و كثيرا، فابتعدتُ عن القراءة عمومًا والتجأت إلى الاستماع والتدبر، صحيح أن "**القرآن شفاءٌ لما في الصدور**" لكني كنتُ اقرأ (**سورة البقرة فقط**) أخبرتني يومها أنك أيضا لم تحفظ شيئا طيلة أسبوعنا الذي مَّر، فاتفقنا على أننا سنعوض ذلك الأسبوع بسورة طويلة ألا وهي (**سورة المائدة**).

ثم قضينا ذلك النهار نحكي تفاصيل ما حدث في ذلك الأسبوع، قصصنا لبعضنا الكثير من القصص، إلى أن حل المساء، وذهبنا لأداء صلاة المغرب، ودلفت بعدها لمشاهدة برنامجي المفضل؛ وذهب عن بالي حقًّا أننا قد تصالحنا.

بعد صلاة العشاء عدتُ مجددا، أتصفح هاتفي هنا وهناك باحثة عن ثمة موضوع قد يشغلني؛ وما إن فتحتُ هاتفي حتى وجدتُ كَمًّا هائلًا من الرسائل؛ تعاتبني فيه بأنك قد راسلتني، ولم أكُ موجودةَ وقتها لأرد لك، واتهمتني بأني لا ولم أفتقدك.

ربما تكون على حق!

وربما تراك قد ضقت ذرعا بي، وأن الوقت قد طال معي، وأنا لم أهبك قلبي بعد!

كنت تريد أن تلوذ بالفرار وقتها؛ كما لذت من التي قبلي إسراء، إيمان، فاطمة لا أدري ما اسمها، ولقد مللت مني بلا شك، لكن كيف لك بأن تهرب دونما أن تنتصر وتنجح خطتك؟

لابد لك من مخرج تعبر من خلاله؛ ألا وهو قلبي الوهن ولكن كيف ستفتحه؟

فقررت وقتها أن أتدارك غضبكَ، وعتابك بقصةٍ قصيرة، كتبتُها من وحي خيالي وعلى عجلٍ، قصصتها عليكَ حتى تهدأ؛ فأعجبتكَ كثيرًا وهدأ داخلك المشحون غضبا، وتذمرًا، سكن تمامًا.

ربما لم ألحظ بأن اختفاءك المتعمد ذلك؛ كان جزءًا من خطتك المحبوكة جيدًا.

علمتُ وقتئذ بأنِيّ لا أعنيّ لكَ الكثير، أنت فقط تضعنيّ في قائمتِكَ حينما يهجرك الجميع.

متى ما شئتَ تُبعدنيّ، وتعيدنيّ.

إنِيّ مجرد عتبة تعبر فوقها، خط على الهامش، يُمحى ويُسَّطر من جديد.

حسنًا ...

إنِيّ لا أتسول الحبُ منك، ولن أتوسل يومًا إليك.

حقًا كنت أمقتُ أن أكون في المنتصفِ، ولا أحب أن أهُمش، إما أن تتقدم خطوة نحويّ، وأتقدم خطوة نحوكَ فنجتمع.

أو تتركني لحال سبيليّ أضعك بالمكانِ الذي أريده أنا.

ثم ماذا حدثَ يومها؟

أجل؛ سار كُل شيء مثلما تمنيتَ أنت، ومن تلكم اللحظة بدأ العد العكسي لرحيلكَ، يوم أن نطقت بتلك الجملة، ليست كلمة كما يتوقع الجميع بل هي جُملة طويلة "**أحبك إلى اليوم الذي ينادي الله فيه أين المتحابون في حلالي**" قلتها أنا ورددتها أنت، ومنها وضبتَ حقائبكَ لأجل الوداع، ربما تكون قد محوتها من ذاكرتك، ولكني لم ولن أنساها، ولكن لا بأس حسنٌ

فعلتَ؛ رحلتَ مبكرًا ولم تتمكن مني جيدًا، بئسًا فعلتَ عبثًا بقلبي قد أردتَ، صحيح أنكَ به قد ظفرتَ، ولكنكَ في دماره لم تظفر.

"12"

"لا أحد يتعافى من صدمته الأولى بشكل كُلي، ستظل تلك الندبة مدفونة في أعماق قلبك ولكنها ستحيا في كل موقف مُشابه كأنها تُعاد من جديد"

أحمد خالد توفيق

في مساء اليوم ذاته جمعة التاسع عشر من كانون الثاني/ يناير استمعت للمرة الأولى في حياتي إلى أغنية "ردوا حبيبي لملحم زين" لم أسمعها من قبل لأني لم أكُ معتادة على سماع الأغاني كثيرًا، لا أنكر سماعي للأغاني فليس منا من هو معصوم عن الخطأ، ولكنها كانت مرتي الأولى التي أعرف فيها المغني والأغنية ذاتها؛ فكانت كلماتها تجُسد واقعي وما أنا فيه، بالرغم من اختفاء شُحنات الغضب التي قد كانت بيننا، وعودة المياه بيننا إلى مجاريها؛ إلا أني ما زلتُ أشعر أن ثمة ثغرة ما كانت موجودة بيننا، أو أن غيابكَ آلمني للحد الذي لم يجعلني أتماثل للشفاء منه؛ فجاءتَ تلك الأغنية كدواء متأخر لي، فشدني مقطع بها ألا وهو **"هـ البعد الجارح خلاني سارح، عَمَ حاكي خيال يحلم بـ أمبارح"** ربما الفجوة التي خلقتها أنت بيننا كانت أقوى من أن تجعلني أصدق بأنك عدت، وأننا قد تصالحنا!

بالرغم من أني وقتها كنتُ أكره الأغاني كثيرًا ولكن كلماتها جذبتني جدًا، مما جعلني أبحث عن كُل أغاني هذا الفنان، ووجدتها كلها تماثل حالتي التي كنتُ عليها.

إلا أني قد تخليتُ عنها سريعًا بعدما أدركتُ بأن كل ما اسمعه ما هو إلا ذنب، أضيفه على كتابي، وقد ترجح بكفة حسناتي على الميزان يوم القيامة، وأصير من الخاسرين على اللاشيءِ.

وربما هذا حال كل حواء ما إن يصاب قلبها بسوءٍ؛ حتى تلجأ إلى الأغاني؛ لتزيد ألآمها فقط، تاركة شفاء القلوب، فما كان علي إلا هجرانها محاولة تضميد قلبي بالقرانِ.

ولكن ما زالت تلكم الأغنية تضج في صيوان أذني؛ لتذكرني بكَ، لتخبرني بأنك ما زلت مستوطن بقاع وجداني، ومستحكم ثنايا روحي، أخبرني فقط لِمَ هجرتْ روحي الحبلى بحبكَ، والتي باتت ثكلى من بعدكَ؟

لم تأخذ بيدي إلى بر الآمان، إلى شاطئ ما بعد الحب حتى لا أغرق وحدي، ولكن عناية الله كانت أكبر من إرادتك، وكما أخرج يونس من بطن الحوت، لن يعجزه إخراجي من فعر جزعي، وأحزاني.

ويقولون أن: "الحب أنانية اثنين" ولكن يبدو أنك لا تعرف عنه أي شيء سوى النرجسية.

عزيزي ربما قد أبدو لكَ من أولئك الذين إذا فقدوا شيء وتمنوا عودته، فرحوا كثيرًا بعودته وتمنوا بقاءه،

بيد أني لستُ منهم، لن أرتجى منكَ البقاء سواء أكان معي، أو بالقربِ مني، ولكن تأكد بأن عودتكَ لي تحت أي لحظة لن تمحو من دفاتر الماضي فكرة هجرانكَ، فإن فعلتها مرة؛ فما يدريني حتما ستعيد الكرة، وخافقي ليس معادلة رياضية قابلة للحل بطريقة المحاولة والخطأ، ومنذ أول محاولة ولم تُجِد حلها بالطريقةِ الصحيحة، ستنتهي حينها فرصتكَ، وأنت حاولت وقد أضعت فرصتك لوحدكَ، فلستَ بذلك الغباء حتى تخسر عمدًا، ولكن ربما أردت النجاح بطريقتكَ الخاصة.

ويا لدهائك حقًّا!

بالرغم من كُل ذلكَ فقد جعلتني أفتح أبواب موصدة، ورأيتُ جروحًا مندملة، ما ظننتها يومًا ستندثر وتندمل، فكيف التئم جُرحي وبرأ؟! ولِم لم يعد له أثر؟

لا أدري كيف تداركتُ روحي ودثرتُ أحزاني، ولم يعد يضنيني التنائي، أحقًا مضيتُ وما عاد للحنين حيزٌ في قلبي، وخمدتَ دواخلي الملأ بالأحزانِ والأشواق؟

هل تراني أدمنتُ الغياب ولم تستهويني تلكم الذكريات؛ التي كانت تسبب شروخ وجرح عميق في حناياي؟

ولم يعد لها أثر من فتات أو بقايا!

إذًا ما بالي كلما مرَّ لحن تلك الأغنية علي، أو استمعت إليها عن طريقِ الصدفة، تعود ذكريات ذلك اليوم علي وتداعب تفكيري.

إذًا ما بال روحي تظل تُظهر صورتك بعقلي بين الفينة والأخرى؟

عزيزي آدم لقد كنا نقيضين كالماء والنار تمامًا؛ لذا كان صعب علينا أن نجتمع معًا، وأيضا لا أود أن أجعل الجميع يمقتك جراء فعلتك تلك، حقًّا لا أود أن أثير بمشاعر الكره تجاهكَ، كنت وما زلت تستحق الأفضل دائمًا، ولكل إنسان معاييره الخاصة؛ لذا تستحق أن تكون كما تريد ويحق لكَ أن تختار مع من ستبقى، وتبني حياتكَ، ولكن أيضًا لا يحق لكَ أن تعبث بمشاعر الآخرين فهم ليسوا فئران تجارب.

"الفأرة" أطلقتُ ذاك الاسم على شخصي الضعيف حينها، كنت كفأرة التجارب لا فرق بيني وبينها بيد العقل، و ما أظنني في ذلك الوقت كنت أملكَ عقل؛ لذا لا فرق بيني وبينها, ولقد

عاتبني الجميع على ذلك اللقب وهم لا يدرون ما المغزى من وراءه, ولا يدرون أيضا بأنك وراء ذلك العزاء الذي أقمته.

"13"

"إن الله يقذف الحب في قلوبنا، فلا تسأل مُحب لماذا أحببت"

علي بن أبي طالب

لا تسألني كيف ومتى ولِمَ أحببتكَ ولا تلمني على ذلك، ولو كنت أعلم ما هي نواياك لما تقدمت خطوة نحوكَ، ولا أحد قد يعلم ما في الغيب إلا الله.

لطالما لاحت ليّ ذكريات ذلك اليوم الاثنين السادس والعشرين من شباط/فبراير، عند الساعة العاشرة إلا ثمانية عشر دقيقة صباحًا حين فاجئتني بسؤالِكَ:

-حواءَ!

-نعم!

-لِمَ كذبتي عليّ و أحببتني؟

أخذني الصمتُ لبرهةٍ من الوقت قبل أن أرد عليكَ، أو ربما أخذني طويلًا، وقتها هرب قلبيّ إلى يوم آخر ليس ببعيد كان ذلك في التاسع عشر من كانون الثاني /يناير يومها قلت لي:

-لن تكونيّ لسواي ولن تحبي أحدًا غيريّ، سأجعلكِ تُحبيني أنا فقط, وأقسم على ذلك.

-عفوا، عن ماذا تتحدث؟

- لقد أقسمت وكفى

- ألم نتفق على أن لا يتعدى أحدنا، على قوانين الصداقة، ألسنا أخوة؟

-نعم، نحن أخوة ولكن من نوع آخر.

رُبما كان الشق الثاني من قسمك هو الجزء الوحيد الذي لم تحنث به، وكما يبدو أن رائحة الخيانة قد فاحت من هنا، عدتُ مجددًا إلى لحظتي تلك وأنا بين سؤالك هذا وحديثكَ السابق, في قمة الحيرة، كنت كمن ولج في غيبوبة مؤقتة ثم فقت منها، واستجمعت قوايِ وكذبتُ عليكَ، أجل كذبتُ وقلتُ لكَ بأنيّ:

-لا أحبك ولم أحبك يومًا.

أليس هذا ما تريده؟

أليست هذه هي الإجابة التي تريح قلبك وتُثلج صدرك؟

أطلقت إليها العنان لتصل إليك، الآن بتُ لا أحبك، فاغرب بوجهك عنيّ، وليتك تدري ما عانيته بعد يوميّ ذاك

-أخبريني كيف حدث هذا؟

-عجبا!

- ألم نتفق على ألا يقع أحدنا في حب الآخر؟ وأنك لن تحبيني، إذًا مالي اليوم أراك تخونين عهدنا؟

- هل اتفقنا حقًّا؟ لم أكن أدري، إني أذوب آسفًا، ولكن أخبرتك آنفا، بأنك فقط وفقط صديق فلا تعاتبني على شيء لم يحدث آدم.

-....!

-هل يمكنك التحدث إلي؟ أنت لا تصدقني أليس كذلك؟

-إلى اللقاء.

-حسنا، إلى اللقاء، ولكن صدقني،لم أخن قوانين الصداقة، لم أخنكَ، وإن كنت لا تصدقني فلا تعذبني بابتعادك عني مجددًا.

-اعذريني، لا استطيع التحدث إليك الآن.

-هل يمكنني الاتصال بكَ؟

-لا تحاولي، إياك!

-حسنًا، إلى اللقاء إذًا.

لكم كنت قاسي معي، وكم كنت حمقاء وضعيفة؛ بئسًا ... عندما تمر علي ذكريات كهذه أعض نواجذي ندمًا وحسرةً على هشاشتي، على ضعفي، ولكني أحمد الله على قوتي الآن.

ربما سأظل أكذب عليك بأني لم أحبك يومًا؛ هكذا أجبتك يوم أن باغتني بسؤالكَ، ولكن ما كان يغمره فؤادي لك يومها، لم يغمره لغيركَ؛ فهو ليس كقلبكَ لا يخون إن عاهد، ولا يعاهد لأجل أن يخون، لم يعرف الحب قبلًا، ومن بعدك نسي كيف يحب المرء، ليس كقلبك حقًّا فهو عانق البدر باحثا عن الأمانِ فيه، ولم يكن له أمان إلا معك، عاكسته الحياة كثيرًا، وظلت تعبثُ به، فأعوج عُوده، ولم يكن له استقامة إلا على يديك، كنت وقتها أريد فقط ولو القليل الكثير منك؛ لأستمر ولكنكَ كنت بخيل، وجاحد بشكل لعين حقًّا.

في صباح اليوم الثامن والعشرين من شباط/فبراير وعند الساعة الحادية عشر إلا ثماني دقائق وصلني إشعار منك فيه:

-سلام حواء، آسف في المرة السابقة لم استطع أن أجيب على مكالمتك، ولم أجد الوقت لكي أعاود الاتصال بك.

- يا مرحبا آدم وعليكم السلام، لا بأس ما من داعي للاعتذار، كل ما في الأمر أنني لم أكذب عليك، وأردت أن أخبرك أن لا تستمع لأولئك الذين يحشرون أنوفهم في ما بيننا ومن دون أخذ الإذن منَّا.

إلا أن ردك لرسالتي اليتيمة وصلني في صباح اليوم التالي الأول من آذار/ مارس وقد حاولت جاهدة أن أوضح لك سوء فهم ما، ولكنك كنت عنيدًا جدا، قلت لي يومها:

-صباح الأنوار، لماذا وقعتي في حبي، لماذا حدث كُل هذا؟

-بئسا ألا تمل، قلت لك بأني لم أحبك، ولم انجرف يوما إلى منحدر حبك، بماذا أقسم لك، أخبرني هل جننت؟

-لا بأس صدقتك، كيف حالك اليوم؟

-بخير الحمد لله، وأنت؟

-الحمد لله.

-اعذرني لدي بعض الأمور التي أود إكمالها فائذن لي!

-تفضلي، ولكن لِمَ أنتِ مستاءة كهذا؟

-.....؟!

لا تحاول آدم أن تتصنع الود حتى لا أستطيع إخراجك من قلبي بسهولة، فأنت حتما لن تخرج بتلكم السهولة، حقًّا فقد تشبثت به وأحكمت قبضتك عليه جيدًا؛ بئسا آدم فهذه مرتي الأولى التي أعاملك فيها بطريقتك ذاتها؛ ألا وهي الهرب، فقد طبعت بإحدى صفاتك السيئة

بيِّ. أجل هربت منك دونما أن أرد عليك، ولكني حقًّا مللت، جعلتني ألوذ بالفرار منك ومن سؤالك الذي لا تمل منه.

ولكن ماذا حدث بعد ذلك اليوم، التاسع عشر من كانون الثاني/يناير؛ يوم أن أقسمت لي بأنك ستأسر قلبي، بدأت بالسير على خطك المعوج ذاته؛ على ذلك المسار الذي أقسمت عليه حتى تفي بقسمكِ.

وبعد ثلاثة أيام الثاني والعشرين من كانون الثاني/ يناير راسلتني:

-حواء و أيم الله أنا أحبك يا فتاة، وأخاف أن أخسرك في يوم ما دونما أن أشعر.

-آدم ماذا جرى لك؟ على رسلك.

-قولي أنكِ تحبينني فقط، لا تدرين أيَّ شعور هذا الذي يخامرني حينما أكون بعيدًا منك، تخامرني وخزات في قلبي تكاد أن تخترقه، وكأنها تقتلع روحي من جذورها، أظنه شوقي المفرط لك، وعندما تكونين بقربي تختفي تلكم الجلبة، ويكأنها ما كانت، أخبريني هل تحبيني كما أحبكِ؟

-حتى وأن قلت لك أني أحبكَ يا عزيزي، فما بيننا ما هو إلا حب حرام، وإن كنا نتلو القرآن، وستكون علاقتنا محرمة، ضع تحتها ألف خط أحمر.

-ماذا إن خسرتك إذًا، لا أستطيع أن أتخيل أن تكوني لأحد سواي؟

-لا تفكر في الخسارة يا صديقي؛ لأننا إن ولجنا في معركة الحب تلك فحتما سنخسر، سنخسر صداقتنا وأخوتنا.

-.....!

-ما بكَ آدم؟

-انسي كُل ما قد قلته لك، وكأنني ما قد قلته، أنت محقة.

-حسنًا، تصبح على خير.

ولكن مهلا..

يبدو أن هذه الخطة لم تفلح أيضا معي،لم أقع فريسة كمينك، فأمسيت تضع خطة أخرى، فخًا أقوى، خطة هي الحلم الذي تتمناه كُل فتاة، وهو يوم ارتداءها الفستان الأبيض وبجانبها فارس الأحلام، وبالنسبة لي كانت تلك معجزة أن يطلب رفيقي المقرب مني الزواج، في صباح اليوم التالي فاجتني برسالتك:

-حواء، أتمنى لو تكون زوجتي مثلك، هل تقبلين أن تكوني زوجتي؟

-تعال إلى والدي وتقدم لي على سنة الله ورسوله.

-أعدك بأني سأفعل، الآن هل ستوافقين؟

-صدقني يا آدم مهما بحثت فلن أجد رجل مجنون قد يغزو حياتي مثلما فعلت أنت؛ أنت بمثابة هدية من القدر صدقني، وأشعر بالزهو بأن القدر بعثك لي، فلِمَ أتردد في طلبك لي الزواج وسأوافق بإذن الله.

-الحمد لله، الآن أنا سائر في درب أن أجعلك حلالي.

-سأكون في انتظارك إن شاء الله.

في ذلك اليوم انجرفت نحو حبك، ووقعت أسيرة بين يديك؛ ظننت بأنك قدري الذي قدر لي، وازدادت فرحي لأني الله هباني قلبًا كقلبك، طيب، حنين ليس له مثيل.

ولكن أي درب هذا الذي سرت عليه آدم؟

ليتك هنا لتخبرني.

"14"

" ومن ذاق طعمَ الحب مثلي فإنه عليم بأن الحب مرّ مطاعِمُه"

أبو فراس الحمداني

يقولون أن الحقيقة مُّرة ولكن حقيقة الحب أمَّر منها، وكما قال عمر بن أبي ربيعة عنه: "وجدتُ حَوضَ الحبِّ حين وردتُه مُرَّ المذاقةِ طعمه كالعلقمِ" خصوصا وإن كان مع من لا يستحقه، من يجعلك فقط تستنزف جُل مشاعرك على سديم سرمدي، وربما يقودك إلى هوَّة الخذلان، وتتأرجح على خيط رفيع قد ينقطع في أي حين، ورغم ذلك نظل متمسكين به؛ لأننا لا نُبْصر الحقيقة في وقتها، تكون أعيننا مَعمية عنها؛ فنحيك وننسج بذلك الخيط حقيقة تناسبنا حتى لا نفقد من أمامنا ونتحسر من بعده. ورغم ذلك نفقده فنتوسد الأسى ونظل نبكي ليلًا نهارًا، من الفجر إلى الغسق علَّه يعاود ولوج حياتنا، مع علمنا بأن البكاء لا ولن يعيد أحد وإلا لأعاد الموتى. عزيزي آدم إن كنت حقًّا رحلت فارحل ...

وليرحل كُل من يشاء أيّما يشاء؛ فكل من عليها فآن ولا أحد باقٍ غير الله، لابد لكل ظلام أن ينقشع وللحقيقة أن تُبان بوضوح, وبغيابك خلقت لنفسي حقيقة أعادتني إلى الله، وتمسكت بها جيدًا.

لَكم كنتُ أكره لحظات حديثنا التي تكمن فيها خبايا، ففي ليلة السادس عشر من شباط/فبراير كنتُ غبية، ومجنونة بحبكَ لدرجة جعلتنيّ لا أبصر شيئا سوى أن تظل معي وبقربي.

وكما قال أفلاطون: "الحب أعمى" فهو حقًا كذلك.

من وضع عصابة على عينيَّ!

لِمَ لم أرَ ثوب نفاقكَ آنذاك؟

حديثكَ السمَّيُّ الذي اجتاح خافقيّ، ابتسامتكَ المزيفة، عقلكَ الذي يهيئ لتلك الكلمات القذرة ويسمح لها بالانسياب؛ فبعد أن تأكدتَ بأن كمينك قد نجح، وبأني وقعت ضحية فخك، فأرة في مصيدتك، وبأنكَ قد بنيتَ لكَ حتما مكان بسويداء قلبي، وتبوّءَت لك مقعدُ في لبّه، وقد ملكت زمامه، صرت تعبث معي، أعلنت وبكل وقاحة ونذالة تمردك على هذه البقاع، أضحيت تهددني برحيلِكَ وتقول لي ببرود تام:

- سأرحل بعيدًا.

- لله درك! أنت تستحق حقًا أن تكون بعيدًا من البشر؛ فقط لأنك نادرًا ولم أرَ بطيبة قلبه إنس إلى الآن؛ فإذ تلوث معدنك فعلى الدنيا السلام، إذًا ما رأيك أن تذهب إلى جزيرة بعيدة، فاتنة الجمال وكأنها قد وُجدت لأجلك ولكل أولئك الطيبين أمثالك وتحبس هناك؟ أو ما رأيك بغرفة تحت الأرض بها كُل سبل الراحة والرفاهية حتى لا يجدك أحد ويشوه جمالكَ! لا تخف لن تموت من الجوع أو العطش؛ لأني سأهتم وأقوم بترتيب كُل شيء لأجلك....

قاطعتني وبعجرفةٍ قلت لي:

-أنتِ لا تفهمين! أريد أن أكون بعيدًا منكِ أيضًا.

-لا لن تفعلها, لن تجرؤ على ذلك.

-.....!

-أ حقًا؟!

هذا الحوار أيضا انتشلني من لحظتي تلك إلى يوم آخر في كانون الثاني/يناير، اثنين الثاني والعشرين منه قلت لي يومها:

-وداعا، إلى اللقاء القريب البعيد، سأذهب ولن أعود إلا بعد عيد الفطر.

وقتها أجبتك بكل برود:

-حسنا لا بأس اذهب، وإن عدت قبل ذلك اليوم فخير إن شاء الله.

-أنا جادٌ يا حواء، سأغيب مدة أربعة أشهر، لن يكون لي وجود لا عن قريب ولا بعيد في حياتك، سأختفي حقًّا.

-ما بك قلت لك إن شاء الله، ولخير هل تود أن تقول شيء ما؟

-لا، لا أود ومع السلامة.

ما هي إلا دقائق مضت حتى أمسكتُ هاتفي واتصلت بك قلت لي حينها:

-لقد كنت فقط أختبرك، وأريد أن أعرف ما هي ردة فعلكِ، حينما تعلمين بأمر ذهابي، وقد كنت باردة جدًا ولم يثركِ قط غيابي المفاجئ.

هل هناك قانون في قوانين الصداقة ينص على أن تختبر صديقك وتتأكد من حجم ما يكنه لك؟

هل هناك قانون في قوانين الحب ينص على أنه يجب أن تتأكد من صدق الحبيب، وإن لم يعترف لك بحبه من قبل؛ حتى يوقفك لحظتها ويقول لك لا أبقى معي، فأنا أحبك؟

ألم أخبرك من قبل بأنك بارع جدًا في اختراع وخلق نظريات جديدة!

ربما حقًّا لم يثرني ذلك كما قد قلت، ولكن أخبرني أنت لِمَ اتصلت بكَ يومها؟

لِمَ كنت بكل غباء أطلب منك عدم الذهاب وترد قائلًا:

– لو كان الأمر بيدي، لما ترددت في البقاء ولبقيت معك.

أخبرني فقط لِم لا ترى ما أفعله لأجلك وتظل فقط تختبرني بنظرياتك؟

يوم ذاك ابتسمت وودعتك داعية لك بحفظ وأمنه، لكم كنت باردة يومها، ولكن صداقتنا كانت أعمق من أن أدعك تختفي هكذا من دون سبب واضح، وربما ما أثار فضولي أكثر؛ هو اتخاذك لهذا القرار دونما وجود سبب يدعو لذلك، وقد تبقى للعيد آنذاك حوالي أربعة أشهر كما قد قلت.

ولكن ...

أين اختفى ذاك البرود في هذه الليلة، إذًا لِمَ لم أقلُ لك ارحل؟! لكنت فعلًا قد رحلت من غير ضجيج، ولِمَ أوقفتك في المرة التي سبقتها؟ هل ربما أكون حقًّا قد بدأت بالتعلق بكَ، وكنت فقط تحاول اختباري، وقد مللت وأنت تنتظر هذه اللحظة؟ لا أشك حقّا في ذلك؛ فالخبث الذي كنت تخفيه آنذاك بات واضحًا.

لا أدري فربما يكون هناك سبب آخر لم يخطر على بالي إلى الآن، ولكن ما أعلمه حقا أني أوقفتك لأجل صداقتنا كما قلت سابقًا.

اليوم وكأن الأمر انقلب عليّ ألا يا ليتني قلت لك حينها (ارحل) فأنت لست أوكسجين يجعلني أتنفس، ولا أختنق على هذه الكرة الأرضية، أو هواء إذا حُبِس عني سأموت بعدها.

ألا يا ليتني كنت قوية وقُلتها حتى تختفي عني وأنا مدركة لذلكَ؛ فربما ظننتُ بأن ارتباط أرواحنا ببعضها حقيقةُ، وأنكَ حقيقةُ لا مجاز، مما جعلني أتمسك بكَ يومها، اعتقدت بأننا خلقنا لبعضنا؛ لنكون معًا ونكُمل ذاتنا، ولم يراودني الشك فيك أبدا، بعدما عرفت أي قلب تملك؛ فظننتُ بأن كل ما تقوله لا يشع إلا بوميضِ الصدقِ، بيد أن حُبك لي لم يكن إلا محضُ خيال، سراب، وأوهام زيفتها فباتت في دهاليز روحي حقيقة، أو ربما شيء بينهما وشتان ما بينهما.

عزيزي آدم...

لطالما كنت تنتظر لحظة الهروب، جازفتَ بنفسكَ فلم تأبه لخطر البدايات، وأني قد أردعكَ وترجع محملًا بالخيبةِ.

بئسا لا أظن بأن أمالك ستخيب، لأنك صياد ماهر، والصيد سيكون عندك وفير، وستستعيض بفريسة أخرى، إلا أنك استطعت أن تُحيكَ خيوطك جيدًا، وتقيم لكَ بيتًا بخيط عنكبوت في قلبي؛ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت؛ كيف لا وأنت الذي هدمته بنفسك؟ قطعت تلكَ الخيوط بيدكَ؛ فقد كنتَ تدركَ أننا ما بيننا خيطٌ ضعيف وسينقطع في أي حين. أما عن بقية الحديث الذي دار بيننا في تلكم الليلة والذي لا يمكنني ذكره حتى؛ سيظل قابعًا بدفتري مسطر وواضحٌ خطه؛ وسيمر شريطه علي كلما عدت لقراءته، وسيجدد ميلاده عند اليوم ذاته في كل عام؛ ليجتثني من واقعي ويضعني أمام هذا اليوم، فأقف في ذهول مع الأعوام، كيف لكَ أن تكون هكذا؟

وقت أن تحول قلبكَ إلى صخر، إلى حجر, وإن من الحجارة لما يتفجر منها الأنهار فكنت أقسى منها؛ و كيف للأعوام أن تفعل بي هذا؟

تعاقبني أنا على فعلتكَ، وما بين ليلة وضحاها كل شيء اختفى، ولكني الحمد لله قوية رغم كُل ما حدث ولم يحدث ليلتها شيء .

ـ"خـــــــاطرة"ـ

هل كان حب أم غباء ؟

أيا سيدي، يا من تجرعت كأس الذل منه وعلى يديه؛ في كل مرة كان يعاودني الحنين فيها إليكَ ولمقلتيكَ، وكُل لحظة تحاصرني الأشواق فيها إليكَ؛ وتعبثَ أناملي بشاشة هاتفي، لأبعث لكَ بَرْقيةَ حب لا محتوى فيها إلا أنكَ كنت قد تفهم بلا شكَ ما حوته، وكعادتك ببرودٍ تام لن ترد عليها، وأنا بغباءي أعيد إرسالها عندما يطوقني فيها طيفكَ العابر.

أيا سيدي ...

منذ أن تعلقتُ بكَ، وأدمنتُ قلبكَ، زرعتُ حينها تُرهات وهواجس بداخلي بأنكَ لي ولست لأحد سواي، ولكن هيهات فقد كنتَ لمئات الآلاف غيري من نون النسوة، وكأن الحياة عاقبتني على ثقتي الزائدة بكَ، فهجرتني وأيقنت وقتها أيضًا بأني رَّبما خسرتُ، وخسرتكَ.

جعلتني أعشق قربكَ، ووجودكَ ثم تركتني أسير في الطرقات وحدي؛ أترنح كمدمنِ كحول أو ما شابه، فاقد لجرعتِه التي تعيد إليه توازنه وحياته، ضاعت الجرعات وانتهت، وما عاد عقلي إليَّ.

أيا سيدي ...

لا أدري لِمَ غامرت منذ البداية و أحببتُكَ؟

و لا أريد أن أدري، ولكن يبقى ذاك السؤال يدغدغ في كل حين سكينتي هل هناك ارتباط بين الحب و هرمونات الغباء؟

لأني فقط أريد أن أستعيد ما تبقى مني.

"15"

"إن دخلتم القلوب فأحسنوا سُكناها، فإن خرابها ليس بهين"

علـى بن أبي طالــب

"أشعر بخيبة عصا الأعمى التي كسرها حين أبصر"

دائما ما يراودني هذا السؤال، منذ متى شعرتُ بأني حمقاء؟

هل عندما تركتُ آفة الحب تسري مجرى الدم في جسدي لتمتص جُل سعادتي؟

أم عندما تمسكت بسراب، وفتحت قلبي على عالم أكثر سواد وعتمة، والذي يجعلني أتمنى عودتكَ في كل لحظة؟

ولا فائدة ترجى من تلك العودة، كل ما في الأمر أنه (إدمان وجودك والتعلق بك).

لطالما رغبتُ في أن أتخطئ وجودك، إلا إن قلبي كان يرفض ذلك، كان يرفض حقًّا أن يتخطاكَ، فقد كنتَ وما زلتَ سيده, وكل من زاره بدافع الحب،لم يستطع يومًا أن يقبع فيه، ويكأنَّك قد ألقيت عليه تعويذتك؛ فبات لا يثق بأي شخص غيركَ, بالرغم من أنك خنته, أليس هذا بغباء! أن تثق بمن خانك كسر قلبك, أمضَّه وجعله شظايا متناثرة! فصل بين قلبين كانا رتقا, ولا سبيل لوصلهما مجددًا وأبدًا.

حتى أن ذاك الذي ما زال يخفق بيساري؛ كان ينبض بأحرف اسمك، وقد أدمن وجودك معه؛ فأن تتعلق وتربطُ قلبكَ بأحدهم ليس سهلًا.

الإدمان حقًا مميت وقاتل، يقتل القلب ويضمرُ مشاعر متلاحقة، مقترنة ببعضها، مبهمة لا تتسم بالوضوح دائما، سيان إن كان من تهتم لأمره لا يهتم بك، ولا يريد أن يعطيكَ قلبه بكاملِه، كل ما بالأمر أنه أراد أن يجعلكَ تتعثر مرارًا ومرارا.

في أي علاقة ما لم يكتب لها بالاكتمال..سيعتقد أحد الطرفين أو كلاهما بأنهما يستطيعان مكابدة الألم، متناسين بذلك فجاجة الأحداث، ولكن هيهات لابد أن يكون أحدهما أو كلاهما في حالة هذيان، وسيهربان من الواقعِ مدة من الوقت، وأنا بدوري قد كنت أحد الطرفين الذي يود الاختفاء والهرب بعيدًا، أردت الهرب مني ومنك إليك قد كنت أعتقد أن لا آمان لي إلا معك.

بدوت كأرملة ثكلى من بعدكَ، تقاعستُ ولم تعد تجتذبني الحياة إليها، كنت أجهل ماذا أود وأبتغي، فما بين حبك ونسيانك تضاربتْ حياتي، وشُلَّ تفكيريّ، حتى ظننتُ بأنِيّ جننتُ منكَ وبكَ.

ربما أكون قد انتظرتكَ كثيرًا، جلستُ على عتبة الأبواب انتظر إطلالتكَ علَّي أنعم بها، وعلَّك تحن على حالي؛ فأنا بالكاد ما كنت أتذكر روحي.

من أنا، ومن أنت؟ كيف أتيت، ومتى ذهبت؟

اليوم ثلاثاء السابع من كانون الثانيّ/ يناير، استمعت لأغنية "إذا ناوي تروح"

أعوام مضتْ، وتساءلت ماذا لو كنتُ بعثتها لكَ حينها هل كنا سنفترق ؟

هل كنت ستترك بيدي, وتدرك روحيّ من الضياعِ؟

أم كنت ستعود لتربت على كتفي كما كنت تفعل سابقًا؟

هل وهل؟ وتتكاثر الأسئلة عليّ يا عزيزي، ربما يومًا ما سأجد لها أجوبة، وقتها لن يكون لها أثر، ولن تستهويني حفنة الذكريات حتى إليك.

حقًا إذا كنتَ تنوى الذهاب لِمَ لم تخبرني مسبقًا لأعد نفسيّ، وأتهيأ لهذه اللحظات حتى لا أتبعثر في الطرقات وحدي؟

سافرتُ على أنغام تلك الأغنيةِ العذبة، شجنة الكلمات، وجَسدتُ لقاء من محضِ خيالي، فكنتَ أنتَ ربان الرحلةَ والبطل، هنا بدأت أسالك لِمَ قد فعلت بيّ هذا، وأنا التي لم تسلم قلبها يومًا لإنس غيركَ، كيف لكَ تذقني حلاوة الحب ومرارته في آن واحد ؟

كيف جعلتني أخاف من أن أتقدم خطوة نحوك لأتحدث معك ولو قليلًا، أجل فأنا أخافكَ وأحبكَ و أمقتكَ.

لمْ تجعل ليِّ طريقًا آخر أسلكه كيِّ أعرف الحب منه، أنا مؤمنة بقضاء الله وأننا لم نخلق؛ لنكون معًا ولكن إن كنتَ تُبدع في أن تَعِد وتُخلف الوعود فأرجوكَ أبتعد عن حواء؛ فإنها لا تحتمل، يكفينا نفاق يا عزيزي، يكفينا تلك الحرب التي تُميتنا لانتزاعكم من دواخلنا.

"16"

"ربّما غدًا أو بعد غد، ربّما بعد سنين لا تعد، ربّما ذات مساء نلتقي في طريق عابر من غير قصد"

فاروق جويدة

"لطالما آمنت بأن الحب بقاء وليس التقاء، فالعبرة بمن ثبت وليس بمن سبق"-لقائلها

في اليوم الثامن من كانون الثاني/ يناير وعند الساعة الثالثة إلا ثلث ظهر يوم الأربعاء؛ التقينا صدفةً عند أحد أركان الباعة في الشارع، حينها توقفت لشراء كرت شحن لهاتفيِّ الجوال، لستُ أتخيلكَ كعادتيِّ، لا بل أبصرتكَ ورأيتكَ حقًا.

لم أستغرب من هذا كثيرًا؛ فهذي البقعة لا تبعد عن منزلك سوى بضع الكيلومترات، مررتَ بجانبيِّ أو من خلالي، فقد كنت أشبه بشبحٍ اخترقني وعبر من خلالي من دون أن أشعر؛ شيء ما جذبني تجاهَ هذا الشبح...

أوه عفوا هذا الشخص الذي مرَّ بقربيِّ، فظللتُ أراقبُه وأراقب تفاصيل تحركاته، قلبي وعقلي قالا لي:" إنه هو"... أي أنت، يومئذ كانت معيِّ إحدى صديقاتيِّ، وكنا نضع السماعات وندندن على أنغام الأغنية ذاتها "إذا ناوي تروح".

بعد أن رايتك اختفى صوتيّ، تجمدت قدماي، شاح بصري بعيدًا من الواقع الذي أنا فيه، صَمْتُ طويلًا حتى أتتني صديقتيّ تلوح لي بيدها محاولةِ الحديث معي، لم أستطع أن أصغي إليه، فعقلي بات يسترجع شريط ذكرياتكَ الذي فرض نفسه عليّه، وبدأتَ تنهال عليه كزخات المطر، ذكرى تلو ذكرى، بذلتُ ما بوسعي لكبحها؛ كي أعود إلى اليقظة، وأُدْرِك أن كل شيء باد وولى، ولكن هيهات كما قلتُ مسبقًا؛ فالشريط فرض نفسه علي.

لطالما رغبتُ في أن نلتقيّ حقًا، ونتحدث طويلًا؛ حديثًا يشفيني من دائك وأوجاعكَ، ومن فكرة أن تظل هاجسًا يردعني عن كوني سعيدة.

كما أني أيضا رغبتُ بأن أسألك سؤال يدور بخلدي، ما الذيّ فعلته لكَ؛ حتى تعاملنيّ بتلك القسوة، بذلك اللؤم، بتلك الطريقة التي لا تليق بك؟ وأنَّ لكَ أن تزجني في زنزانة سرمدية، في الجانب المظلم من الحب وإلى ديمومته السرمدية، كيف لك تفقدني روحي، ولذة الحياة التي عشتها من قبلك, وأنا التي ربما فعلتَ ما بوسعها حتى لا تفقد أنت نفسكَ.

حقًا لا أعلم لما تسمرتُ بمكاني يوم أن رأيتك، ولِمَ بدأتُ فقط أتأملك من على البعد؟! وأتأمل وجهك البرئ، الذي يحوي في دهاليزه عالمًا آخر أكثر غدرًا.

تساءلت وتساءلتُ كثيرًا لِمَ لم أتقدم نحوكَ وأبدأ بالحديث معكَ ؟لِمَ جَبُنتُ ؟

ربما لم أكُ متأهبة للقاءِ بكَ يومها، ولكن إن جُدد لنا اللقاء يا عزيزي فلا بأس ببعض الحديث؛ حتى نكمل تفاصيل هذي القصة التي لا نهاية لها بطريقة أخرى تناسبها، ونغلق بذلك جروحًا لها عامان ونيف، ولم تندمل كليًا.

حقا تمنيتُ كثيرًا أن تحادثني، ليس لأني أحبك أو شيء من هذا القبيل ولكن كما قلت، فقط لنضع نقطة النهاية، فلم ترق لي طريقتك في إنهاءها، أو بالأحرى لم ترق لي طريقتك في تركك

لها بلا نهاية، فدعنا حقًّا نكملها معا، ونغلقها للأبد دونما الرجوع إليها يوما ما، وهذا ما ستفعله أنت حتما، ولكن ماذا عني؟

سؤال يكتنف بخلدي ولا أملك له إجابة بعد؛ ولكل حواء إجابة مختلفة تماما.

بعدها ...

إما أن نفترق فراقًا وديًا، أو نعود أصدقاء ولكن ليس كما كنَّا سابقًا؛ فالزجاجة التي تنكسر لا تعود كما هي؛ ولكن فقط ليكون للنقطة مكان.

ما بين قلبي وعقلي تهتُ وولجتُ في صراعات ومتاهات لا مخرج منها، فكلما قرر قلبي أن يُرَسل إلى قلبك إشعارات سلام، وبرقيات حب، زجره عقلي وردعه عنك؛ ربما لأنه أكثر من ذا تأذي وسمح لي بحبكَ.

أنا أيضًا موقنة بأنك قد آلمتَ عقلي كثيرا، وخاصة بتركك له يسبح في التفكير الكثير فيك، ولم تترك له طريق ليفسح لقلبي مجال للحب، كيف لا وهو إلى الآن فاقد لكينونته!

"17"

"كفانا نفاق! فما نفعه كل هذا العناق؟ ونحن انتهينا وكل الحكايا التي قد حكينا نفاق..نفاق"

نزار قباني

عجبا!

لطالما كنتَ مُتناقض المشاعر أو منافقٌ لا أدري ربما؛ فالوعود الكاذبة, الحلف بالله كذبًا ونقض العهد كُلها كانت من سِماتَك، أو دعني أهذبها لك وأقول عنك متميز بجدارة.

هل كنت تدرك بأنك مخطئ في شيءٍ ما؟

أم أنك متلجلج في خطواتكَ ومتهورًا أيضًا فلا تضع النتائجِ في حساباتكَ؟

ألم تجد أحد يساعدكَ أو يوقفك عند حدكَ؟

لن تجد ما دمت أنت تريد هذا، و ما دام أصدقاء السوء من حولكّ، ومن يدري ربما أنت السيئ بينهم! ولكن الله لا يهمل هو فقط يمهل فتوقف عند عاداتك تلك يا آدم فحواء ليست لعبة تبدع فيها وتحركها متى ما شئتَ.

في السابع والعشرين من كانون شباط /فبراير اذكر أني واجهتكَ بسؤال باغتٍ:

-لِمَ أنت منافق؟

-منافق؟!

قلتَها لي أكنت مستغربًا؟

أم مستعجبًا؟

أردفتَ ردكَ:

-لستُ منافقًا, فأنا أعامل الجميع بطريقة واحدة، إما أن أميزهم جميعًا أو لا أهتم بوجودهم وأمحوهم كلهم من حياتي، هكذا أنا؛ كُل الناس لدي سواسية كأسنان المشط.

أدركتُ بعد هذا الرد تماما بأني أنا المنافقة؛ لأني بنيتُ لكَ مكانة بقلبي تميزكَ عن الجميع, أني المنافقة حينما رأيت حواء في عينكَ بأنها أجمل؛ بينما أنا في قلبك لا شيء محض فتات، كنت وأسنان المشط كما الجميع في سويداءك. أنا المنافقة التي طبعت بروحها في روحك، وراحت تروم وتسمو نحو قمة السعادة معك، بيد أني حقًّا فشلت وخسرت بجدارة.

لم يَغْب ردكَ هذا عني زهاء تلك الأشهر التي مضت وأعدكَ بأنه لن يغيب، كيف لا يكون كذلك وقد جعلتني أفقد إيماني بذاتي، جعلتني كلماتك تلك خفيفة كريشةٍ أُقتلعت من جناح عصفور؛ وصارت تتهاوى في الهواءِ، أو صرتُ أخف منها.

كانت صديقتي آمنة تقول لي بأني لن استطيع أن أتخطاكَ، لن أنساكَ وما أن يتردد صداك في رأسي، وتمر ذكراكَ في عقلي, وأبدا بالعويل والصراخ؛ حتى تردف قولها:

-انسيه؛ فأنت السبب في رحيله.

أكاد أيضا أجن وأفقد عقلي من تناقض كلماتها هي الأخرى, فأنا حقًّا قد تخطيتكَ وبمساعدتك، بأفعالكَ، بكلماتكَ, وبأسلوبكَ.

دعني أبوح لكَ بسرٍ صغير جدًا؛ هل تصدقني إن قلت لك؛ بأني لم أجد إلى الآن شخصًا قد يماثلكَ أو يملكَ قلب حنين كقلبكَ، ولا حتى جزءًا ضئيل من حنانِك الذي كنت تكنفني به. أجل لم أجد؛ ولكني صدقني سيأتي يومٌ وسيطرق أحدهم باب قلبي، سيكون ملاك سيمس فؤادي بسحرٍ؛ ليزيل تأثيركَ و لعنتك من ثنايا روحي، سيكون أقوى, وألطف منك، بإذن الله. حسنًا...

لطالما أخفيت أسرارنا عن الجميع، زينت لهم صورتكَ، بذات اللطف الذي أتيت متخفيًا به، وتحملت السوء عنك، وأنني السبب في افتراقنا؛ بالرغم من ذلك فكُل شيءٍ واضح بتاتاً كوضوح الشمس في كبد السماء؛ فأنت أيضا كان لك دور في أن تلوذ هاربا, فمن أراد البقاء سيبقى ولو كان هناك ألف مانع يحيله, أما من أراد الرحيل فسيبحث عن أتفه الأسباب؛ فقط ليرحل, وأنت لم تتعب نفسك في البحث حتى، بل وجدتَ أتفهها؛ أخبرني إذًا لِمَ علي أن أتحمل عاقبة فعلتك، وكل ما كان يخامر تفكيرك وقتها هو الفرار.

أتدري...

بالرغم من عدم ثقتي الكاملة بك؛ وخوفي الدائم من تصرفاتك المريبة التي كنت تقوم بها، إلا أني حقًّا قد أحببت قلبك، وأحببتُكَ.

أحيانًا أشعر أني أضعتُك، وأحيانًا أخرى أحمد الله على خسارتي لكَ، ستظل دائما ذلكَ العبء الثقيل الذي اجتاز قلبي وملأه بالحب، والحنان ثم انسحب وتركه فارغًا كما قد يظن، ولكن قلبي لم يكُ فارغًا قط لا قبلكَ ولا بعدكَ، صحيح أني أحببتُك ولكني أحببتُ الله قبلكَ، لم أرَ يدًا تمتد لي وأنا أغرق غير يده، لم ينقذني أحد وعوضني بخير ما فقدت غيره، لم يستطع أحد أن يجتثني من آلمي ويجعل جُرحي يندمل غيره، ربما لم أكُ وحدي؛ فحتى الذين ساعدوني، سخرهم الله لي، ولكن لَم أبصر أحدًا معي أو في قلبي غيره.

"18"

"مات الهوى فتعال نقسم إرثه بيني وبينك والدموع شهود خذ أنت مني ذكرياتك كلها وأنا سأحمل خيبتي وأعود"

جمعة جارد

لربما هناك خير في الخسارة والوداع والفراق وفي كل شيء يحزن قلبك؛ لربما كتب الله نصيبًا أجمل في أمر لم يكُن متوقع ولم تخطط له.

كما قد قلت سابقا لكل بداية نهاية, فقد أينعت رحلتك بالانتهاء من دفتر حياتي, الآن دقت ساعة الصفر، وحان وقت حزم الأمتعة للرحيل؛ فلا شيء قد يدعو للبقاء بعدئذ, الثامن والعشرون كانون الثاني/يناير إنه وقت رفع راية الاستسلام, فقد نجح مخططك يا رفيقي, وتم تغيير الشعارات من (**سأحبك إلى الأبد**) إلى (**أخاف المسئولية**) ولكم أضحكتني هذه الكلمات التي لا صحة لها، أو حقًا تخاف؟!

لكن عن أي مسئولية تتحدث؟

مسئولية إيقاظ قلبي النائم عن الهوى طويلًا ولم يمسه الحبُ بتاتًا، وأنك لم تتعنَ أن تأذيه دون قصد منك؟

-اعذريني إن كنت قد أيقظت قلبك النائم، ولكني حقًّا لم أقصد.

-ولكنك أيقظته وانتهى، فلِمَ الاعتذار؟

-اعتذر على ذلك.

-هل لي بسؤال!

- تفضلي.

-أخبرني إن كنت لم تقصد، فلِمَ أقسمت لي بذلك القسم؟

-صدقيني لا استطيع تحمل ما قد يصيبك.

-ماذا تقصد؟

-لا استطيع تحمل المسئولية؟

-يا رجل؟!

-قولي عني ما شئتِ، ولكن حقًّا لن استطيع تحمل ما قد يصيبك مرة ثانية.

-ما الذي أصابني في المرة الأولى، حتى تخاف منه أن يتكرر؟

-أنتِ أدرى مني في ذلك.

-لا أفهم ما تقوله ولكن سامحك الله، على كل شيء.

-شكرا.

-هل لي بسؤالك سؤال آخر وأخير؟

-تفضلي.

-بِما أنك اعترفت بأنك لم تقصد إيقاظ قلبي ولا تستطيع تحمل المسئولية، فهذا يعني اعترافك كذلك بأنني لم أبتدر الخيانة، وأنني لم أخن قوانين الصداقة؟

-أجل، يمكنكِ قول ذلك.

-وماذا عن طلبكَ للزواج بي يومها؟

كان ردك بارد ووقح كوقاحة تصرفك

-إعتبريه طيش شباب.

-دعنا نغلق هذا الموضوع، يا لك من وغد؛ هيا اغرب عني إذًا.

بئسا عزيزي آدم، ورغم ذلك تقول لي بأنك لم تقصد!

لا تقل لي أبدًا بأنكَ لم تقصد إيقاظه، لأنك نويت، ووصلت وفعلت فعلتكَ النكراء تلك, عبثت بمهجتي, وأثرت الفوضى العارمة به, ثم لذتَ بالفرارِ متمسكًا بجملة طيش شباب؛ كرجل عبث بخلية نحل وبدا بالركض بعيدًا حتى لا يؤذيه جيش النحل الغاضب, ركضت مني وكأنك متأكدًا من أنني قد أؤذيك، ثم بدأت تنتقي أرخص الكلماتْ، حتى تبرر موقفكَ وتُخِرج نفسكَ مُنتصرًا تمامًا، لا غُبار عليكَ.

ربما اختلط عليك سوء الفهم الذي لطالما حاولت إيضاحه لك، وحديث صديقتي مريم التي ملأت رأسك وقالت لك بأني أحبك وقد تعلقت بك بشدَّة، ومرضت كثيرًا في ذلك اليوم الذي اختفيت فجأة، ولكني كنت مثل الحصان بكامل نشاطي وصحتي، لم يخامرني قط شعور أنك بعيد مني.

هي لم تقصد ذلك كذلك؛ فهي الأخرى اختلط عليها الأمر؛ ومرضي ذلك مزمن لا علاقة له بكَ، أجل فقد كنت مصابة بداء السكري إذ أني في تلكم الليلة؛ نسيت فقط تناول أدويتي مما تسبب في انتكاس حالتي للوراء قليلا.

بعد ولوجنا معا في تلكم المعركة التي كانت حقًّا داميةِ؛ كنتُ أحسب نفسي خاسرة فيها منذ البداية، ولكني صدقني لو كنتُ على علمٍ بها سابقا، لما كنتَ ستنتصر، ولكن هنا حلاوة المعركةَ وبدايتها بالحربِ الباردةِ، وأيَّ من كان قد يعلم ما في الغيب إلا الله.

بالرغم أني خسرتُ وخسرتَكَ، إلا لم أفقد روحي التي كانت تستمد قوتها منك، تجلَّدت أمام موج الأحزان, لذا كنت في عيني نفسي المنتصرةٌ، وبلا منازع.

وهذه لم تكُ النهاية، فالكثير من الأمورِ حدثت والتي تحدثُ لنا, ولا نعلم خباياها, ولا من أين تأتي!

كثيرًا ما تواجهنا مصاعب، وتمر علينا لحظات، نقابل فيها أشخاص لا نعلم عنهم أيَّة شيء، ولكنهم يصبحون الأقرب إلينا وإلى أرواحنا دون غيرهم، يداعبون قلوبنا بأيديهم ويبهجون دواخلنا بجمالهم، وبذات القوة التي اقتحمونا بها يفجعوننا، يغادرون قلوبنا بغدرٍ وصمتٍ تام، أي عن طريق الهرب باحثين عن قلب برئ آخر، يلجونه ويدنسون نقاءه، لا سلطة عليهم؛ قطاع طرق القلوب أولئك الذين يتصيدونها قلب تلو قلب، دون المبالاة بما يخلفونه من أرواح ستعاني بلا شك حتى ترجع ويعود إليها اتزانها، أرواح ربما سيلازمها الشك طيلة حياتها، من أي حب أتى ليلامسها ويزرع في مبسمها سعادة، ولن تهنأ إلا بعد شفاءٍ تام قد يطول لأعوام, لذا لابد لأولئك القُطَّاع أن ينالوا ويشربوا من الكأس ذاته، يتذوقون طعم التعلق والهرب، لابد لنا من الانتقام أحيانا، ألا إن كيدهن عظيم؛ ف"**عندما لا تكون هناك عدالة، يكون هناك انتقام**" ربما أكون قد خططت للانتقام منكَ عدّة مرات ولكن طيفًا

طاهرًا، وقلب نقيا كانا يمنعاني من فعلها ألا وهما قلبك وطيفك؛ فقط وفقط عندما أتذكر لحظة ولوجك إلى حياتي.

أما ما دفعني للانتقام منك وبشدَّة هي تلك اللحظة التي أرسلت فيها بصديقك إبراهيم لكي يلج حياتي هو الآخر، ربما كنت تظن بأني سأكون في خضم محيط أحزاني وغارقة فيه، سأكون محطمة القوى، ولا خيار لي في تلك اللحظة سوى البحث عن حب يلملم ما خلفته أنت وراءك من بقايا، هل ظننت حقًّا بأني اقتات سنين الزمن الغابر، ليحط بقلبي كرماد؟

نظرياتك تلك يا آدم ستقتلني...

ورغم ذلك فقد كنت أعي بِما تقوم به، اقتحم إبراهيم حياتي عنوة ودونما استئذان حتى، حاول التحدث معي، مدَّ لي يده المتسخة، المقرفة لينتشلني، بيد أني رفضتها، وطردته بعيدًا؛ فقد كان مقرفًا إلى الحد الذي يثير الغثيان.

أراد أن يتسربل ناحيتي ولكني لم أدع له المجال؛ بأن يتسلل إلى دهاليزي المصابة بك، إلى روحي الحبلى بحبك.

طردته بعيدًا فلم يحتمل هو الآخر واسمعني كلماتك كالسمِ وانصرف يجر خيبته وراءه، قال لي:

بأنني مريضة بالشك في الجميع.

ـــوإن طالت سيقان الشك بداخلي، أليس من حقي؟

أخبرني بأني تعيسة لا أصلح للابتسام مجددًا، وأني مصابة بلعنة الاكتئاب الدائم.

ـــومن هو حتى يقرر هذا القرار، ويسلب مني هذا الحق.

أخيرًا قال لي: بأني مريضة بك وفقط.

ـــولكني حتما لم أخبره بأنك السبب في داءي.

إذًا آدم قل لي، هل نجحت في الاختبار؟

حاولت الانتقام بالطريقة الغبية ذاتها، ولكني لم أجدها إلا طريقة رخيصة، ولن تجدي نفعا مع صياد مثلك، لأنك قد تكسر بقلب إحداهن مرة أخرى، وإني لا احتمل مثل ذلك الكسر.

قبل عدَّة أشهر السادس والعشرون من كانون الأول/ ديسمبر مررتُ بالقرب من بيتكم صدفة وكنت آمل أن أراك وتراني، أو ربما فقط أراك ولا تراني؛ فإني رأيتني سترى لهفة الشوق في عيني، سترى ضعفي وارتعاش أطرافي.

كنت أود فقط لو ألمحكَ، أو تخالط رائحة عطرك الهواء فيمرُ عبر أنفي بعض منه، بيد أني لم أنل، حقًّا لم أنل ما كنت أصبو له، كل ما قد نلته؛ هي رائحة الطعام التي تفوح من مداخن المطاعم المتراصة أمام بيتكم.

حتى أن حُفَّنةَ الذكريات لم تقف هنا فقط يا عزيزي؛ وإنما أخذتنيّ إلى حيث الجامعة التي درست فيها، وأيامك الطوال التي قضيتها هناك. مررتُ عبر ذلك الممر الذي يفصل حوض الأزهار إلى قسمين، لقد نمت الشجيرات الصغيرة سريعا واستقام عودها، أما عني فقد صغرت وضعفت أمامها، انكسر عودي، لم يعوج حتى، بل انكسر إلى شقين، لم استطيع أن أجمعهما. خطوت على ذلك الممر الذي خطوت عليه أنت قبل عدة أعوام. فسرت قشعريرة في جسدي؛ ويكأني أخطو على خطواتك؛ بدوت وكأنني طفلةٌ تتعلم المشي خلف والداها؛ الذي يتقدمها وهو يطبع بخطواته عنوة حتى تسير عليها.

وقتها كان البرد يعصف بشدة بيّ، وأنا أحاول بجهدٍ أن أجد ولو ثمة شيء ما؛ يجعلني أتذكر أي لحظة قد كان تجمعنا في هذا المكان، أو شيء صغير يمكنني أن آخذه معي أينما حللت، ويكأنك ترافقني, بيد أني لم أجد أيضًا.

"19"

"لن يمر هذا الحزن من فوقك، عليك أن تنغمس فيه، وتعيشه إلى أن يختفي"

الفراق يطمس معالم الحياة الجميلة, فيجعل قوس قزح بلا ألوان, كُل الألوان تتحد فتصير لونًا واحد، إما أسود أو ربما رماديٌ باهت, وكذلكَ هي اللحظات؛ فكُل لحظة تعقبه تمر بشكلٍ باهتٍ وبطئ.

قد كان كُل يوم يمَر علي من يوم ذهابكَ دون وداعي بمثابةِ تمهيد لأستعد لرحيلكَ؛ فدائما ما كنت تودعني بوابل من الدعوات وطالبا من الله أن يحفظني لكَ، وأن يلازمني التوفيق في حياتي، تسْتودعني إلى الله, وأنا بدوري كنتُ أحب من يدعو لي, أحب الدعوات كثيرًا، وهي نقطة ضعفي وأنت بَرُعتَ في استغلالها حينما قلت لي:

-إذا لم نكن نملك سبيلا للقاء؛ فلندعْ دعواتنا تتعانق في السماء.

ربما أكون قد تألمتُ كثيرًا يوم أن أعتدتَ على ذهابك دونما أن تتركك لي رسالة تخبرني فيها بذهابك, دون أن تطلب مني دعوات، دون أن تقول لي: لا تقولي وداعا بل قولي إلى لقاء قريب؛ بيد أني أعتدتُ عليه أيضًا وسريعًا من دون أن أعي.

لذا ربما لم يلفت انتباهي أمر غيابكَ المفاجئ، فقد كنتُ أحب تكرار الألم وهذا المواقف في دهاليزي ؛ حتى تبهتَ جُل ملامحها المرة.

كثيرًا ما أمُر على ذكرياتنا معًا؛ فأبتسم وتدمع مقلتاي، ولكني أكرر قراءتها حتى تبهت هي الأخرى وتجف تلك العبرة وتصير لي عبرة، فأنت لا تعلم كم عانيتُ ببعدكَ، كنتَ تظن بأني قوية أليس كذلك؟

وأني قد تخطيتُ فراقكَ ؟

هل ما زالتَ تعتقد أني كما كنتَ تناديني (فتاة المهمات الصعبة)؟

لستُ كذلك، بعد فراقنا تخليتُ عن هذا الاسم، صرتُ لا أحب القوة؛ حينما قلت لي:

-كوني معي، لي، لأجلي، كوني أنتِ القوة التي لا أضعف بعدها أبدًا.

أولم تظن ولو لحظة بأنها قد تنطبق علي أنا أيضًا؟

فقد كنت عصاي وسندي، فمن كان ذا سيسندني على عصف الحياة من بعدكَ، وبمن سأتشبث ؟

ومن ذا سيشد بأزري؟

"20"

"المؤمن القوي خير وأحب عند الله من المؤمن الضعيف"

هناك حكمة تقول: "حقيقة الإنسان ليست ما يظهره لك, بل بما يفعله لأجلك لذلك إذا أردت أن تعرفه عليك أن تصغي لما لا يقوله"

لا يمكنني عزيزي آدم نسيان حوارنا الذي دار في اليوم الثالث من أيام الشهر الكريم (رمضان) أي بعد انسدال الستار على مسرح حُبنا ببضعة أشهر (ثلاثة أشهر مضت) اتصلتُ بكَ، كنت مع صديقتي آمنة آنذاك؛ لتناول وجبة الإفطار معها، وأردنا يومها أن نبارك لكَ حلول الشهر؛ لحظتها لم أقوَ على الاستماع إلى نبرات صوتكَ، ترددت وتراجع خشية أن تذرفَ مهجتي، وتصير قوتي تلك فتات؛ محض هشيم تذروه الرياح، فأعطيتُ الهاتف لصديقتي؛ لتحادثك هي بدورها؛ فقد كانت أقرب إليكَ مني، أتذكر أنكما قد تحدثتما طويلًا وقتذاك، ثم أتيتُم على ذكر نتائج التحدي, أتَذكر التحدي ؟

أجل يوم أن تنافسنا على هدية ما، وسيحصل عليها من سيحرز أعلى الدرجات، في امتحان الفصل الدراسي الأول، حينها علمنا بأنك كنت أقل درجة منَّا، فسألتَكَ آمنة عن سبب تدني هذا المعدل فأجبتَها:

-لم يكن مزاجي معتدل للدراسة.

لن تدري وقع تلك الجملة على قلبي، وكأنه وقع مني، لوهلة ظننتُ بأن فراقنا قد آثار حزنكَ، ولكن أعي جيدًا بأني لا أعني لكَ شيء.

ثم سألتَها عني ربما، أو هي أجابتكَ من دون أن تسأل؛ بأني قد أحرزتُ درجات عالية، لا أعلم ردة فعلكَ آنذاك لكني أجزم بأنكَ لم تفرح لأجلي، هل كنتَ تظنني ضعيفة لهذا الحد؛ حتى أهمل في دراستي؟

هل كنت تظن بأني سأبكي ضعفًا على فراقكَ، أفقد شهيتي، أزجُ بنفسي في زانزنة الأوهام، أحتضن وسادتي ليلًا ونهارًا, و أبكي على فراقك، هل كنتَ حقًّا تعتقد بأني سأفعل كل هذا؟ أجل فعلتَ وأدركتُ روحي، وقلت لها:

"لِمَ علينا الركض خلف أشياء كُتب لها بالرحيل؟"

ثم تذكرت حديث رسولنا الكريم: "المؤمن القوي خير وأحب عند الله من المؤمن الضعيف" وأن هناك خيرًا قادم لا محال، فالله لا يأخذ منا شيئا، ونصبر عليه، حتى يأتينا العوض منه، صبرتُ على فراقكَ وكتبتُ شعارًا لي في تلك المدة "كلما طال الصبر، كلما عظم العوض" العوض آتاني في نجاحي، في توفيقي، وقد تراءي لي بالقوةِ التي اكتسبتها مؤخرًا؛ بتُ أقوى من (فتاة المهمات الصعبة) فقد صرتُ (فتاة المهمات الأصعب والأقوى)

"21"

"بين كسب القلوب وكسر القلوب حرف واحد مختلف أعطى معنيين مختلفين، إياكم وكسر القلوب, فإنه لا يصدر صوتًا, ولكن يصدر كثيرًا من الألم"

عمرو خالد

لكم من المخزي أن تشعر بأنك انتصرت وأنك من ضحكت أخيرًا, ثم تذوق الكأس ذاته التي قد أذقته لغيركَ, فتقف أمام مرآة الحياة، إلا أنك لا تبصر شيء سوى العتمة، وليتك كنت تبصر؛ لأبصرت تلك القلوب المنكسرة، والتي سيظهر انعكاسها بوضوح أمامك، أو لو كنت تنصت لاستمعت لأنَّاتها، ولكنك كنت كمن خُتم على قلبه، وعلى سمعه وعلى بصره غشاوة.

"أولئك الذين يكسرون قلوب الآخرين بكلماتهم وينتزعون شيئًا من سلامها، كيف تمتلك أفواههم القدرة على أن يقولوا في صلاتهم (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)"

ذات يوم لا أذكر تاريخه، كنت أقلب في صفحتي في الفيسبوك، فشدني ثمة حنين إليك فقفزت إلى حسابك الشخصي فوجدتُ هذه الكلمات عليه, هل حقا كُسر قلبكَ؟

هل أُنتزع سلامه, أم أنها عدالة السماء؟!

لِمَ كتبتَ هذه الكلمات وإلى من توجه سؤالكَ هذا؟

لا أخفيك بأنه قد خالط قلبي القليل من الألم عندما رأيتها لأول وهلة، ولكن أ ليس عليك أن تجيب على سؤالك ذاك أنت أيضًا؟

كيف لا وقد كسرتَ قلبًا ذات يوم ولا أدري قد تكون قلوب، فأنت ماكرٌ وبارع في هذا! كسرت أنت ذات يوم قلبُ إحداهن ثم صليت في الساعة ذاتها وقلتَ "السلام علينا" كسرت روحي التي صارت جذاذ أو تنكسر الأرواح؟ وداخلي الذي عاد خاوٍ بعدما كان ممتلئ بك, فمن بعدك صرتُ وهنة، كنت أشبه بثملٍ لا مشروب له، تائه يبحث عن المزيد منه ولو جرعة واحدة له، فقد كنت جرعتي التي أدمنتها ولم أجدها لأستعيد توازني، كضائعٍ قد ضل الطريق، ووجد نفسه في دهاليز نفق مظلم لا يرى ضوءًا من أي ثمة مكان ليعبر إليه لا بداية ولا نهاية.

أما الآن فشتان ما بين الأمس واليوم، بالأمس كنت كل حاجاتي وكفايتي، أمسي، يومي، وغدي، حاضري ومستقبلي، وكل ما قد أتمنى، ولكن اليوم أنت هبات ذكريات، مجرد وخزات تخامر القلب بين الفينة والأخرى لا غير، اليوم لا وجود لك حتى في سويداء قلبي ودهاليز عقلي، وحقا أن لا شيء بيني وبينك؛ فذلك الفصل السيئ من قصتنا كتبته أنت يا آدم، أنا فقط ترجمته على هذه الأوراق، وعلى هذا الدفتر العتيق، أردت أن تعبث بتلكم الأوراق المكدسة على رفوف قلبي، أثرت الفوضى به وبعثرته، أنت من غادرني، ومن كسرني، فلماذا كلما كنت وحدي يخامرني شعور الذنب بأني أنا من دمرتك رغم أن لا ذنب لي في كل ذلك، وأقسم على ذلك أن لا ذنب لي، كتبت ذات مرة على بريدي الالكتروني:

"لم أك قط يوما رفيقته التي تمناه، لم أكن له المتكأ و الأمان، لم أدثره في أحزانه، لم أحتويه، لم أجبر كسره، لم أضمد جرحه، بل كنت أزيد من ألمه، وقد كنت أيضا من كسره، ومن جرحه، سبب ألمه وحزنه، تلك الغصة التي توجع بقلبه، هرب من قلبي باحثا عن قلبي أكثر رقة، هرب مني لأني لم أكن أجيد المحافظة عليه ولا فن إزالة الآلآم، ولقد أراه الله برهان إني لست من ذا سيؤويه. ليتنا ما التقينا، ليتني لم أكن لك تلك الغصة التي أوجعتك، ليتك لم تلتقي بي، وليتك علمت ما بي من قسوة"

حقًّا ليتني لم التقِ بكَ لما كنت بهذا الضعف، في كل مرة أكتشف بأن الله أراني البرهان برحيلك، وفي كل مرة أعض نواجذي ندمًا على ضعفي.

أيَّ قلب هذا الذي هربت إليه، لا بل هربت باحثًا عن فريسة أخرى آدم تبا لك بشدّة. كنت دائما ما تسميني بقدرك الأسوأ، إذًا ماذا عنك؟

"22"

" أنا لا ألعب معك لعبة الاختفاء، أنا حقًّا مضيت وقلبي شفاءه الله"

ححقيقة...

في بعض الأحيان نتمسك بأشياءٍ عابرة بكلتا أيدينا، ونرفض رفضًا باتًا تركها ويكأنها لنا؛ ومن فرط حبنا لها نُحكم قبضتنا بها حتى لا تُفلت من بين أيدينا، ورغم ذلك نفقدها، فنظل متمسكين بما خلفته وراءها من بقايا أو بالأحرى نمسك فقط بسرابها، ذكرياتها التي أضحت من ذكرياتنا؛ وصارت جزءًا لا يتجزأ من ماضينا وحاضرنا، إلا أنه وبعد مدة وجيزة نرفع أيدينا

معلنين استسلامنا؛ مقتنعين بأنها ما كانت ولن تكون لنا، ما هي إلا سطر خُطَّ على حياتنا بقلم الرصاص، ومحاه ذلك الشبح الوهمي المسماة بالزمن.

الآن وبعد مضي بضع سنين عجاف، مضيت أجُر بخطواتي الثقيلة من دونك، مضيت في الطرقات وحدي محاولة العودة إلى عالمي بعد ولوجي لذلك المكان المعتم، ولكن أي طريق أسلكه؟

كان صعب عليَّ الاختيار في البدايات ، فقد أضحت الطرقات كلها متشابهة، ولكن الله أنار بصيرتي وانتشلني من براثن الظلمات إلى عالم النور.

أبعدتُ بروحي من كُل ما قد يُذكرني بكَ؛ فلطالما حاولتُ خلق فجوة لأعبر من خلالها إليك، أدس نفسي عنوة على صفحات حياتك؛ لأكون عنوان ليومياتك. ذكرياتك كانت تحاصرني، تخنقني، تحاول أن تجتذبني، أو العكس أنا من كنت أجتذبها، فقد أكون حاولت جاهدةً أنْ أتذكر بعض من تلكم الذكريات؛ التي كنت حتى بعد عامين من انفصالنا أنبسها بيدي؛ لتفيض مشاعر الحنين في وجداني، فقد كنت اقرأ جُل رسائلنا القديمة حتى حفظتها، ومن ثم أمُّض بروحي، أقلب في صوركَ، كما أني أيضًا كنت اتصل عليك بين الفينة والأخرى لأستمع إلى صوتكَ، ولا أدري إلى أين سيأخذني ذلك الحنين؟

وربما أكون قد أضعت أيام من عمري في ذلك، وبالمقابل سُطِّر على قلبي درسًا محال علي أن أنساه كما ذكرت آنفا؛ درسًا كان بمثابة العظة والعبرة. عزيزي آدم قلوبنا ليست محطات يقف عندها من يشاء ويهدمها كما يشاء، ويمضي وهو مخلفا وراءه خرابة، قلوبنا ليست للتجربة، لسنا بفئران المختبر آدم، ألم تُخلق حواء من ضلعك؟ أكرمها إذًا.

ربما أيضا أكون قد ضعفتُ وضعف قلبيّ وأنا أخط أحرفي لكتابة هذه القصة، وتقلبت مشاعري بين الفينة والأخرى، وقد ألقيتُ على قلبي النابض بالوجع عاتق أن يتذكركَ؛ بيد أنه الآن لم يستجب لي؛ بل لم يهز شريان لأجلك، لَمْ تعبر أوردتي، تكرار ذكرياتك المرة في ثنايا روحي، جعلها كغيرها من الذكريات التي تعبر دونما أن تُثير العقل وتعزف على القلب لحن طبولها الخاص؛ لتجعله ينبض طربًا بها وبلا توقف.

أكانت هذه قوة النسيان التي طغت عليّ؟

أم التناسي الذي أعتدت عليه، تناسيتك فنسيتك, ولولا بعض الذكريات التي تخامر روحي لَما تذكرت.

فيا عجبًا ...

ففي الماضي كان من الصعب عليّ نسيانك، واليوم من الصعب عليّ أن أتذكر اسمك، فهنيئا لمن حاض حربًا ضروس، كانت من الممكن أن تؤدي به إلى حافة لا معلوم قعرها، وانتصر على نفسه فيها، في ما كان يتوقع لنفسه الخسارة.

وبعد أن تنهي ذلك الحصار الذي فرضته على روحك؛ ستضحك حتما على كل تلك الخيبات التي داهمتك في الماضي كأنها لم تكن، وعلى تلكم الأيام التي أضعتها بالنحيب، والتوسد بالأسى، واحتضان وسادته؛ فهنيئا لك في كل لحظة.

وكما قال الإمام الشافعي: **"ليست الطريق لمن سبق وإنما الطريق لمن صدق"**

فلا تضع وقتك في انتظار حب مضى؛ حتى يعود ليطرق بابك من جديد، ولا تنتظر أن أحدًا ما قد يأتي صدفة وينتشلكَ من معمعتك، دع المجال دائما لمن لا يبحث إلا عنكَ، أنت فقط لا غير، لا حب، لا صداقة، ولا حتى عن نفسه في دهاليزك، بل كما قلت آنفا؛ يبحث عنك في أعماقك. أفسح المجال لمن أتى متزنًا، بشوشًا، رحب الصدر، طيب القلب، لا يرتدي أي ثمة قناع ما، يجتثك ويطبع روحك فيه من دون أي ينتظر منك مُقابل على ذلك؛ لمن أتى صادقًا وبالحب أصدق وأنقى.

"23"

"إنني أحتفل بمرور يوم على اليوم السابق .. وأحتفل غدًا بمرور يومين على الأمس .. وأشرب نخب الأمس ذكرى اليوم القادم ..هكذا أواصل حياتي"

محمود درويش

في شتاء ذكـــــريات عابر

ليس لدي الحقَّ بأن أسيء للأيام أو أن استاء من أمر قال الله له كن فكان، صباح كأي صباح مظلم يطل على قلبي، تشرق فيه شمسه معلنة عن بداية يوم آخر دونما وجودك، أحث بخطاي المثقلة نحو محطة الحافلات، استقل إحداهن، أتجه إلى عملي وكلي قوة وبقلب بارد أو بالأحرى متجمد؛ هل تدرك بأني بتُ لا أشعر بالبرد يسري في أواصري؛ عجبًا حتى أني لا أرتعش منه!

أصبحتُ باردةً بطبيعتي، وربما كالقطبيين وأكثر؛ أضحت كُل أياميّ شتاء وطبع بجفافه وبروده عليّ؛ فصرنا واحد، ربما لأنه الوقت ذاته الذي جمعنا وفرقنا، ومن هنا ستبدأ حياتي مودعة ذلك الفصل، ومشرقة ببداية أجمل.

اليوم هو الألف وخمسون بعد الفراق أغلقت ذلك الدفتر الذي فتحتُه دون قصد مني، توقف انهمار مُقلتاي يومها، ثم أيقنت بأنك ذكرى لا غير، أغلقته وألقيته بعيدًا هذه المرة وأنا على يقين بأني لن أفتحه مجددًا دونما سبب يدعو لذلك، لن أحرقه حتما، ولكني على ثقة بأن ذلك الثقل الذي اجتاحني، الألم الذي شق خافقي لن يخامرني بعد عامي هذا؛ فمنذ آخر لقاء بيننا يا عزيزي لم تعد تلك الكوابيس تراودني، فقد كان يتوجب علينا ذلك اللقاء، حتى نضع نقطة النهاية، لهذه القصة التي كانت أشبه بالسراب الأبدي، ولكن هروبك وخوفك المتكرر عند كل محطة جعلها تطول، إنك لا تجيد سوى وضع الفواصل وإطالة المحطات، أو إنهاءها بطريقتك الغبية تلك دون مراعاة لغيرك، ومع كل نهاية تبدأ حكاية أخرى.

-العفو يا أخت.

-لله، آدم وشكرًا على كل شيء.

-.....!

كانت هذه آخر محادثة جرت بيننا قبل أشهر، وودتُ يومها أن أطلب منكَ العفو، وأن نحيي صداقتنا من جديد، بيد أنك رفضت، قابلتني بالرفض التام وأنك لا تود ذلك، يومئذ تأكدتُ تمامًا يا عزيزي بأنكَ لست ولَمْ تكن لي، ولم يكن مقدر علينا أن نكون أصدقاء حتى!

ولا أريد أن أخفي عليك بأني قد أبصرت بقلبي وبصيرتي عوض الله والخير من بعدك، فلمْ أكن احتمل فكرة أن تبتعد والآن لا أظن بأني سأتحمل فكرة أن تعود.

"24"

"إن كنت تبحث عن الكمال فأنت لا تبحث عن الحب، لأن الحب معجزة تكمن في عشق العيوب"

شمس التبريزي

عندما يحتل كائن من كان شخص، أو حيوان، أو حتى شيء مميز حياتنا، ويتغلغل إلى دواخلنا؛ تجدنا تعلقنا به وأخذ حيزًا لا بأس به في سويداء قلوبنا، ولكن عندما نفقده دونما عودة له وفجأة؛ فإننا حتما لا نحتمل هذا الفقد في بادئ الأمر؛ فنفقد معه بصريتنا و بصرنا، نتمنى لو يعود الزمن بنا إلى الوراء قليلًا لندرك آخر اللحظات معه، علَّنا نُصلح بعض الأخطاء التي ارتكبناها، دون قصد منَّا.

ولكن حينما يغادر قلوبنا أشخاص بملء إرادتهم، وحتى من دون استشارتنا في ذلك!

فلِمْ الجزع والحزن وقتها؟

أوليس الذي خلقه؛ بقادرٍ على أن يرسل لنا من هو أفضل منه؟

ضمادًا يضمد جُرح أفئدتنا، ترياقًا يشفي أوجاعنا، بلسمًا حلو الحديث عذب الكلام.

تتمنى لو التقيته منذ البداية، قبل أن تتجرع كأس الفراق المر، إلا أن الله على كل شيء قدير، إذ أنه أراد منا أن نخوض هذه التجارب، ونصبر على تلكم الابتلاءات؛ ليرينا عوضه الجميل.

وكما أن الله قد أنزل لكل داء دواء؛ فكانت تلك التجربة الأولى بمثابة الداء، ومن أرسله الله ليشفي تلك الأوجاع دواء، ولندرك تماما بأنه لا انتصار أعظم من أن تخمد رغبتك وتنعدم، في من أحترق قلبك عليهم لكي يبقوا.

"مهما توارى الحلم في عيني وأرقني الأجل ..

ما زلت ألمح في رماد العمر شيئا من أمل ..

فغدًا ستُنبت في جبين الأفق نجمات عديدة ..

وغدًا ستورق في ليالي الحزن أيام سعيدة ..

وغدا أراك على المدى شمسا ..

تضيء ظلام أيامي وإن كانت بعيدة"

كلمة الكاتبة:

القصة ليست حقيقية؛ وإنَّما محض خيال، بيد أنها كغيرها من تلكم القصص الجارية على لسان حواء, وقد تُمثل حال معظمهن؛ كأن تقع في حبِ أحدهم حبًا صادقًا دونما أن تدري ما هي نواياه؛ بينما يكون هو الآخر يشبكُ شِباكَه ليستعد لاصطيادها، يضع فخاخه عذب حديثه، وحلو ألفاظه وينمقها، حتى تقع إحداهن فريسة بين يديه.

بعدها يلوذ هاربا ويدع فريسته، أقصد أنثاه وحيدة لتواجه عتمة الحياة،

ربما يظن بأنه قد نجا من فعلته؛ فيمضي على الطريق ذاته متبخترًا، ومتغطرسًا، ومفتخرًا بفعلته تلك لا غبار عليه، باحثًا علَّه يجد في طريقه فريسة أخرى.

ولكن...

ماذا عنكِ أنتِ حواء؟

هل ستسلمين قلبك لحب يقبع خلف الشاشات

أو جاء على هيئة ملاك متنكر؟

هل ستسمحين للاستسلام بأن يدب في دواخلك، ويغزو قلبك، هل تستسلمين لذلك الكسر؟

أخبريني وستقفين عند منتصف الطريق، منتظرة من ذا ينتشلك منه؟

هل ستدعين مساحة لهذا الجرحِ حتى يحتل جزءًا من قلبِكِ، ثم يكبر؟

و ستبكين وتنعزلين عن المجتمعِ بحجةٍ أنكِ الضحية؟

أجل أنتِ ضحية، ولكن من الذي فتح له باب قلبكِ؟ ومن الذي قادكِ نحو ذلك الطُعم؟

حسنا...

لَمْ أكتب هذه القصة لأهاجمكِ عزيزتي، وأعلم بأنك لم تقعِ بملء إرادتك وإنما قادكَ رغما عنكِ نحوه وبقوةٍ، لكن تأكدي بأنكِ أقوى وإلى الله أحب، ولو لم يكن يحبكِ، لَما أخرجكَ من تلك المصيدة سليمة الجسد لربما كان ذلك الذئب البشري؛ يخطط لالتهام عفتك أيضًا.

أما عن كسر قلبكِ وهشاشة روحك ما هما إلا ابتلاء من الله ليعيدكِ إليه، وسيعوضك عوضا يدهشك على صبرك، ويجبر قلبك ويكأنه ما انكسر، وتزهر روحك حُبا حلالا من جديد.

لذا عزيزتي دعي العويل والنحيب.

فإلى متى ستظل أعيننا معمية عن الحقيقةِ؟

هل لنا بأن نستسلم ونعلن بأن الحياة توقفت هنا؟

أليس من حقنا أن نستمر؟

إذًا انهضي وامسحي دموع الخذلان عنكِ، اذكري الله كثيرًا، وتمسكي به، وحافظي على عفةِ وطهارة قلبكِ، حتى لا يخُدش.

كوني أنتِ الجيش الذي لم ولن ينهزم.

كوني لذاتكِ السند والعضد ولا تميلي بقلبك كُل الميل لمن لا يستحق.

دمتي بخير و لكِ كُل الحب مني.

ألم أخبركَ يا عزيزي أنيَّ سَئمتُ ؟
أجل ...
سَئمتُ قَسوتكَ وبرودكَ وجفاءكَ المُستمر ،سئمتُ
وجودكَ الباهت وردودكَ الجافَة ،وصدَّي كثيراً
عند بابكَ وأمام قلبكَ المتحجر .
إذاً لِمَ طرقتَ باب قلبي إن كنتَ لا تحنْ ،وقلبكَ
بالأشواق لأجلي لا يئن ؟ إذاً لِمَ بادرتَ ونزعتَ عن قلبي السلام
وهو به مُنَعَّم .. ؟!
لم يشكُ لي يوماً من رحيلٍ أو غيابٍ من حضور باهتٍ أو ود يمرُ بناظريَّ ،ولم يضجر .
أتيتَ إليّ ونزعتَ منه سلامُه ،لأجل أن ينعم بالحبِ تحت جناحكَ الذي لا يَرْفَ ،وأنت بطبعكَ
لا ترأفُ له أو لسواه ،أوَ حقًا تستحقُ أن يُطلق عليكَ لقبُ إنسان ... ؟!

مرمر محمد